

تفسير الفاسي
المسكت

محاضر التلاوة

تأليف علامه عظيم الشان

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه ونصحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسمى

مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء العاشر

وفيه تفسير :

١٤ - سورة إبراهيم ، و ١٥ - سورة الحجر ، و ١٦ - سورة النحل ، و ١٧ - سورة الإسراء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

مَجْدُودُ عَبْدِ الْغَنِيِّ

عيسى الباني الحلبي وشركاء

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراح إليه ضمائرهما ، وتعمقه عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بركات البساط

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سمّيت به لاشتغالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كاللحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتنفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبوة نبيّنا عليه أكل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايغي .
وهي مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى^(١) « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

«الر كَتَبْنَا» خبر ل (الر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبراً المضمراً، أو مسروداً على نعت التعديد. وقوله تعالى : «أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ» صفة له «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» أى : من الضلال إلى الهدى «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» أى : أمره . وقوله تعالى : «إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» بدل من قوله (إِلَى النُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل : إلى أى نور؟ فقيل : إِلَى صِرَاطٍ ... الخ . و (الْعَزِيزِ) الذى لا يغاب ولا يمانع بل هو القاهر القادر . و (الْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان ل (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) «وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ» أى : بما أنزلناه إليك «مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » بتعميق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبعثون أهلها أن يعوجوا بالردة ، أو يبعثون لها اعوجاجًا ، أى يطلبون أن يروا فيها عوجًا قاذحًا ، على الحذف والإيصال « أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل ، والبعد فى الحقيقة للضال نفسه ، وصف به فعله للمبالغة ، يجعل الضلال نفسه ضالًا . وفى إثبات الظرف على (أولئك ضالون ضلالًا بعيدًا) دلالة على تمكنهم فيه ، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » أى : ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خاطبنا به كما قال (١) (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . (فإن قلت :) لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعًا (قُلْ يَسَاءُ يَهُمَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (٢) بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قات) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانها وتفهمها ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتسكّثر في إتياب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التي هو منها يتلوهم عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه - كذا في (الكشاف) .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعدها تهذيب الأمم الأخرى . كما يعد فرداً واحداً منها تهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هي المختارة تهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم - فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتهيئاً لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، والله في خلقه شؤون اهـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفية لم تعلم إلا بعد مجيئ الرسول ، والآية صريحة في علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ » أى لمباشرة أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة ، كأنه قيل : فبينود ، فأضلَّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيدان بأن مسارعة كلِّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنى عن الذكر والبيان « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى : فلا يغالب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ » أى : أنذرهم بوقائمه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعمائه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هى أعم من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى ، فيما أراه ، لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكييد . وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيدان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكل مؤمن) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصَّابِر) على (الشَّكُور) لتقدم متعلق الصبر - أعنى الإيمان - على متعلق الشكر - أعنى النعماء - وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» أى : يبعثونكم إياه «وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» أى : المولودين صغاراً «وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أى : يبقونهن فى الحياة «وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبته إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيل : كون قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر . وأما استحياء النساء ، وهن البنات أى استبقاؤهن ، فلائهن كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهن دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظم الرُّزءِ فيما أَرَى بقاء البنات وموتُ البنين

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزخشرى : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والحنة جميعاً ، قال تعالى (١) : (وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاها خير البلاء الذى يبلو *

انتهى .

ولذا جَوَزَ أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنعمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء (وَيَذَّبْحُونَ) هنا بالواو ، وفي سورة البقرة^(١) (يَذَّبْحُونَ) وفي الأعراف^(٢) (يَقْتُلُونَ) بدونها . والقصة واحدة - بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وببائه ، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال . وحيث عطف - كاهنا - لم يقصد ذلك . والعذاب ، إن كان المراد منه الجنس ، فالتذبيح ، لكونه أشد أنواعه ، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدة كونه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، فهما متغايران والمحل محل العطف . وجوز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير - لكونه أوفى بالمراد وأظهر - بمنزلة المغاير ، فلذا عطف .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم ، إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِنْ شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ما خلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشد النقم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَسْكُرُوا أَن تَمَّ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) « وَقَالَ مُوسَىٰ » أى : لقومه « إِن تَسْكُرُوا أَن تَمَّ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى : غنى عن شكر عباده ، المحمود بأجل الحمد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إن) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم . فإن الله لغنى عن شكر الشاكرين .

وفى (صحيح مسلم)^(١) عن أبى ذرٍّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » ، فسبحانه من غنى حميد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذه من كفر « نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ١٥ - باب تحريم الظلم ،

حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جداً ناقرأه .

أى : مع كثرتهم « وَعَادٌ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير^(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكاره إياهم بأيام الله بانقمامه من الأمم المسكذبة بالرسول .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح) ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعتبروا بها؟ إن في ذلك لمعتبراً . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله^(٢) : (عَضُّوا عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (فى) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بآلغ فى منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة . لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالكذب . وفى تصديرهم الجملة (بأن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى - أعنى المعنى المجازى - وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندي يد إذا أواه معروفًا ؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى (١) (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبيئات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعمًا وأيادٍ ، وأيضاً اليهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أيادٍ ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدي ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي . وإذا كانت التصامح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى (٢) : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًا فى الأفواه . انتهى .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفي (الرازي) تتمّة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال في (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكد (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأيًا ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافي الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلاً . انتهى .

أى : فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٌ » بمعنى موقع في الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من (أراب) : صار ذا ريبة وهى صفة مؤكدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : وهو مما لا مجال للشك

فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورى في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فطر السموات والأرض - أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : (أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ رَبِّهِمِنَ اللَّهِ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» أى : يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم (مما تدعوننا إليه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدس ، أو للتعديّة أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إما تبعيضية أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزمخشريّ مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للفرقة بين الخطايين ، ولثلاث يسوى بين الفريقين فى الميعاد . قال فى (الكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى التفرقة بين الخطايين بالتصريح

بِغَفْرَةِ الْكُلِّ وَإِبْقَاءِ الْبَعْضِ فِي حَقِّ الْكُفْرَةِ مَسْكُوتًا عَنْهُ لَثَلَا يَتَكَلَّوْا عَلَى الْإِيمَانِ .
 وقوله تعالى : « وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتنعكم متاعًا حسنًا إلى أجل
 مُّسَمًّى « قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقتضيه تدل على فضلكم علينا بالنبوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
 مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ » أى : بالرسالة والنبوة « وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »
 أى : بأمره وإرادته ، وهو لم يرد ذلك ، لقوله ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
 كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) .

« وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : أمرهم منهم المؤمنين كافة بالتوكل ،
 وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًا وأمرؤها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله
 فى الصبر على معاندتهم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ
 مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ » ومعناه : وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه

« وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا » أى : أرشد كلاً ممّا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمى ، مظهرين لسكال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ » .

« وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ »
يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفي من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكون أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد - كما قال الرازى - أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبل . أجيب : بأن (عاد) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسول ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسول ، وبشارة حقة . كما قال تعالى^(١) : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى^(٢) : (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أى : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله^(٣) (وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أو مصدر ميمي ، بمعنى : حفظى وقيامى لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالى . وياء التسكيم في (وعيد) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياء - هنا وفي (ق) في موضعين^(٤) : (كُلُّ كَذَّابٍ لَّرُسُلٍ فَحَقَّ وَعِيدِ)^(٥) (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ أَنْ مِّنْ يَّخَافُ وَعِيدِ) - وصلاً ، وحذفها وقفاً - ورش عن نافع . وحذفها الباقرن وصلأ ووقفأ .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَأَسْتَفْتَحُوا» أى : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٧١ - ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و [٢٨ / القصص / ٨٣] .

(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهي الحكومة كقوله ^(١) : (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)؛ فالضمير للرسول ، وقيل : للكفرة ، وقيل : للفريقين . فإنهم سألوا أن ينصر الحق ويهلك المبتطل . وقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى : فنصر واعند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسول وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فنصر الرسول وأنجز لهم الوعد ، وخاب أعداؤهم . و (الجبار) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و (العنيد) المعاند للحق ، كخليط بمعنى مخالط .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ)

« مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ » جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

« يَتَجَرَّعُهُ » أى : يتكلف تجرعه لقهره عليه « وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ » لخبثه « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأحوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ)

«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التي

فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإتفاق الأموال

وعقر الإبل للضيغان ، في حبوطها - لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد طيرته الريح

والعاصف . وقوله تعالى (لَا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلكه للتمثيل بمعنى المقصود منه

ومحصل وجهه ، أى : لا يقدرُونَ يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أى

لا يرون له أثرًا من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير في الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات

هائلة ، للتصريح ببطالان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم .

وفي توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشتد به) من (شدّ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدة) بمعنى

القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على

الإسناد المجازي كـ (نهاره صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة

(أعمالهم كرماد) مستأنفة جوابا لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل)

و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبَآءً مَّنْثُورًا)

وقوله تعالى^(٢) : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) وقوله تعالى (١): (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأْتُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ وَرِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته . أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفي الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سيمت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس . أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (٢) (أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُجِىَّسَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (٣): (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٧٧-٨١] .

مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

الوجه الثاني : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره ، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى^(١) : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ) وقوله^(٢) : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى ؛ « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العيب كقوله^(٣) : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطَلًا) وقوله^(٤) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطَلًا) وقوله^(٥) : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ أُسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض ،

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ الضُّعَفَاؤُ » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أى : على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم - « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى : بعض الإغناء . « قَالُوا » أى : المستكبرون « لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ » إحالةً ، لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، ولو هدانا بأهدائنا ، ولكن زغنا فأزغنا كما قال تعالى ^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ » أى : منجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى ^(٢) : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَأَنْتُمْ لَكُنَّا مُّؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها الآية ^(٣) : (وَإِذْ يَتَحَاكَّجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط ، كما ادعاه . وربما كان قوله (وَبَرَزُوا) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِي النَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة . والمراد بـ (النَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأى عذاب !

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْلَمْوَأْ أَنْفُسَكُمْ ، مَا آتَانَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء «إِنَّ

اللَّهِ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» أي : على السنة رسله بأن في اتباعهم النجاة والسلامة ، أي : فوفى به وأنجز «وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أي : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا يثبت ولا جزاء . ولئن كان ، فالأصنام شفعاءكم . ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه ، أو مشاكلة . وفي الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعد (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعْدَ الْحَقِّ) .

«وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أي حجة وبرهان «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» أي : أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك ، أي وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، نخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه «فَلَا تُلْهُمُونِي» أي : بوعدي إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر «وَلَوْلَمْوَأْ أَنْفُسَكُمْ» أي : حيث استجبتم لي باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشاني : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنور بنوره ، أسلم وأطاع وصار محققاً لما بأن الحجة لله في دعوته للخلق إلى الحق ، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الخطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم- واهية فارغة عن الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلاّ الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلاّ لمن قبل الدعوة الحالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد فى الاعتقاد. قال : وهو انتزاع حسن. لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه، ولم يطلبوا منه برهاناً. فحكى الله قوله تقييماً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّا أَتَا بِمُضْرٍ خِمْ» أى : بمنفيكم ومنجيكم من العذاب «وَمَا أَنتُمْ بِمُضْرٍ خِيَّ» أى : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابى : الصارخ : المستغيث ، والمضرخ : المغيث ، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه، وهومدّ الصوت. «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَ كُتُمُونَ مِنْ قَبْلُ» أى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم - أى فى الدنيا - يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى^(١) : (وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كُكُمْ) وقوله^(٢) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقوله^(٣) : (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ابتداء كلام منه تعالى ، أو تنمة كلام الشيطان .

قال الزمخشري : وإنما حكى الله عزّ وعلاً ماسيقوله فى ذلك الوقت ، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦] . (٣) [١٩ / مريم / ٨٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

« وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى : الطاعات « جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى : من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (ادخل) أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى : تحييتهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى^(١) : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله^(٢) (وَأَلْمَلَيْكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

ولما بين تعالى ما أعد للمشركين والمؤمنين من المال الأخروي ، ضرب مثلاً للشرك والإيمان - بأن مال الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومال الأول إلى الدمار والاندحار - فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

[٢٥] (تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها « وَفَرْعُهَا » أى أعلاها ورأسها « فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا »

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣ و ٢٤] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية « مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به - أعنى الشجرة - أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب الممثل له . فنها : كونها طيبة . أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانتقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتمع كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على نخامة الموصوف وإنافة فضله . ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للممثل له - أعنى الحق - وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلهما ، صرح بهما فذلك له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا) . والمعنى على الأول : ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم في سؤال القبر به ، وعلى الثاني فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه وزهوه عما لا يليق بجناحه . و (في الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزخشرى وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأن إلى نفسه . وثبتيتهم به في الدنيا ، أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزولوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وثبتيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِلَ في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان ^(١) وأهل السنن .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .
وقال في أصحاب المثل الثاني :

« وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبتَ المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه ، أولظالمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ

إِلَى النَّارِ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أَتَتْهُمْ نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسولٍ من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفرًا عظيمًا وغمصًا لها « وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ الْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديدًا لأولئك الضالين المضلين « تَمَتَّعُوا » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣١] (قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

«قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ» وهو يوم القيامة «لَا بَيْعَ فِيهِ» أى : ليتدارك به التقصير، أو يفترى به «وَلَا خِلَالٌ» أى : محالة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مساححة بما لا يفترى به ، كما قال تعالى^(١) : (وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإتيان وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإتيان لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص ، فبعضوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإتيان لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما - من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإتيان في سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [٢ / البقرة / ١٢٣] .

ذلك في الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيص التأكيـد بذلك لميل الطباع إلى المال ، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به . ولا يبعد أن يكون تأكيـداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبيع والحوالات . كما في قوله تعالى^(١) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى ، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه ، شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام الثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للـكفرة الخـلّين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» أي المزن «مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» أي تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» أي السفن «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» أي بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» أي فتجري حيث تشاءون من شرب وسقي وسواها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ» أي يدأبان في سيرها وإنارتها ودرئهما

(١) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفه ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعاشكم به . فكأنكم سألتُموه أو طلبتُموه بلسان الحال .

وقال القاشانى : (مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بالسنة استعداداتكم . فإن كل شئ يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » لعدم تنافها « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أَوْحَق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن النعم عليه بها ، واحتجابها بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ) أى اذ كر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ما سلف من تعجبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناباتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر
لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس
إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل
شئ . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أنداداً
وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « آمناً » أى ذا أمن .
أو آمناً أهله . « وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بئدنى وإياهم « أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ وِىِّى ،
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » أى كنّ سبياً فى إضلالهم . كما يقال : فتنتهم
الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإعما
صدره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَنْ تَبِعَنِ » أى على ملتي وكان
حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُ وِىِّى وَمَنْ عَصَانِي » أى يخالف ملتي « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »
أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الفنى عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين
إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمَحْرَمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولد منه

« بَوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى لى لى يأتوا بعبادتك مقومة فى ذلك الموضع . وهو متعلق بـ (أَسْكَنْتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمره بذكرك وعبادتك وحدك . وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَأَجْمَلْ أَفْدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً .
 فيأنسوا ويتمارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالنافع « وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ » أى فتجعلها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى : نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها ، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)^(١) .

قال الزمخشري : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا ، منا . وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتحشعاً لعظمتك ، وتذلاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجلاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتعلق العبد بين يدي سيده رغبة فى إصابته معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح . فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . انتهى .

وجوّز في قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِىْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَ عِىْلٍ وَّ اِسْحٰقَ ، اِنَّ رَبِّىْ لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ)

« اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِىْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَ عِىْلٍ وَّ اِسْحٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابى « اِنَّ رَبِّىْ لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ » أى مجيبه .

قال الزمخشريّ : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفرُ بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ اجْعَلْنِىْ مُقِىْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِىْ ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ)
« رَبِّ اجْعَلْنِىْ مُقِىْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِىْ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم . قرئ (ولوالدي) . بالإفراد . وكأن هذا قبل تبين أسره له عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه ، إذا أنظرهم وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم . بل هو يحصيه عليهم ويعدّه عليهم عدداً . وفيه تسليّة للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعد للكفرة وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى يأمهاهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يجعل عقوبتهم « لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرأ أعينهم فى أماكنها ولا تطرف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَايَ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعي الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى ^(١) (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ) وقوله ^(٢) (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً) .

(١) [٥٤ / القمر / ٨] . (٢) [٧٠ / المعارج / ٤٣] .

« مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطفرون .
ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى لا قوة
فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشري : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان
هواء ، إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضاً : قلبه هواء . والمعنى :
أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء .
من هول ذلك اليوم وشدته وخوف ما يقع فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا
أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)

قوله « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا » أى رُدُّنَا إلى الدنيا وأمهلنا « إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من
الزمان قريب « نُّجِبْ دَعْوَتَكَ » أى إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنی . « وَتَتَّبِعِ
الرَّسُولَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيثاً : أولم
تكونوا تحلفون « مِّن قَبْلُ » يعنى في الدنيا « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من دار الدنيا
إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى ^(١) (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن
يَمُوتُ) .

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » كعاد وتمود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُوا » أى بالنبي صلوات الله عليه « مَكْرُهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » أى مُسَوًى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها ، لتناهى شدته .

وجوز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم . على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمسكناً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولَ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتفتلع من أركانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ » أي من نصرهم المبين في قوله تعالى (١)
(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) (٢) . (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) (٣) الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الأخروي المتقدم في قوله تعالى (٤)
(إِنَّمَا يُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأولين ، في
معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوتر تقديم المفعول الثاني ، أعني (وعده) ، على الأول وهو
(رسله) للإيذان بالعبادة به . فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به
على السنة الرسل . فالهم في التهديد ذكر الوعيد . كذا في (الانتصاف) .

وفي (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وما ذكره ممن وقع الوعد
على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب
الترقي كما في قوله (٥) (رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي) . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أي غالب لا يماكر
« ذُو انتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأولياءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض
جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا امت . وتبدل السموات

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] . (٥) [٢٠ / طه / ٢٥] .

بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لا يخلف وعده) .
« وَبَرَزُوا » أى الخلائق أو الظالمون من أجدادهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين تهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » جمع (مقرن) وهو من جمع فى قرن (بفتحين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى (١) : (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) . وقال (٢) : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو : قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى (٣) : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِي الْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَدَ (بفتحين) بمعنى القيد أو الغل . والقيد هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجار متعلق بـ (مُقرَّنِينَ) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٢) [٨١ / التكوين / ٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

« سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظرًا عند العرب . وهو الإبل الجربى التى تطفى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود مذتن الريح .

قال الزمخشريّ : تطفى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لدغ القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكلّ ما وعده الله وأوعده به فى الآخرة فينبه وبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينبجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم : مارواه الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب . والطمع فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت . والنائحة إذا لم تب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلاء الخوارزمى أنفذها لمن شكأ إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها ييوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمدد القذارة . كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . وعلة تدل على تضيق واجب النفس من التعهد .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعنا) .

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المنّة فى التوقى . أسير فى يد
الحرص والتشمّى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا
وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء . ينظر إلى الناس بعين الريب . ويتستر عنهم كتستر المعيب .
تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكاته العيون . وأقل ما يصيبه أنه يحرم
آلة المطاعم ، وهى يده . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتهما . ومن
عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان . وتجعله أميّاً بعد أن كان غير أميّ .
وأعجميّاً وليس بأعجميّ . تنفر عن نفسه نفسه . وتهرب من فراشه عرسه . ويتباعد عنه
أقرب الناس منه . ثم هى رُبّع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة : الموت والعشق والإفلاس والجربُ
وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .
قال أبو تمام (١) :

لما رأت أختها بالأمس قد خربتُ كان الخرابُ لها عدوى من الجربِ

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزي ، شارح الديوان :

الهاء فى (أختها) راجعة على عمورية . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خربت ، وهى
أخت عمورية ، أعدتها بالجرب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد^(١) :

ذهب الذين يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ في خَلْفٍ كِجْلِدُ الْأَجْرَبِ
فجعلهم رأس الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغَشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال^(٢) (تَطْلُعُ عَلَى الْأَفِيدَةِ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزخشرى وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام . أو عام للبرة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا) وما بينهما اعتراض أو بد (ترى) « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم . كقوله^(٣) (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله^(٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . وقوله تعالى :

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَا لَكَ وَادْهَبِ وَالْحَقُّ بِأَسْرَتِكَ الْكَرَامِ الْغُيْبِ
يرثى بها أخاه لأمه ، أريد .

يقال : خَلَفَ خَيْر ، وَخَلَفَ سُوء .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ٧] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِ الْأَلْبَابِ)

« هَذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَّغٌ لِلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ » أى ليخوفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو . وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أُنذِرُوا به ، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشري : (وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِ الْأَلْبَابِ) أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥ - سُورَةُ الْحَجَرِ

سميت بها لاشتغالها على قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايى ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

« الرَّ » تقدم الكلام في مثله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ » الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغي . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

« رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » . تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً)^(١) وفيه تنبئ للنبي ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جىء بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناء عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أمل استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيراً فى المال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشريّ : فيه تنبيه .

ثم بين تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدّر ليتأمل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقديم الإنذار وتكرّره على سمعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ)

« مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار . ثم أخبر تعالى عن عتوّهم فى كفرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا يَسَاءَئِلُهَا الَّذِى نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا يَسَاءَئِلُهَا الَّذِى نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكماً . أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

[٨] (مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ)

« لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى هَلَّا تَأْتَيْنَا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقولهم ^(١) : (لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) . وقول فرعون ^(٢) : (فَلَوْ لَا أَتَىٰ عَلَيْهِ أَسِيرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقْتَرِنِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنّة الإلهية ، وهو العذاب « وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين . كقوله تعالى ^(٣) : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليمة وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ » أى من كل مَنْ بغي له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبجر هدهاء يجرى ، وظلال حقيقته فى علومه تمتد على الآفاق ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢٢ و ٢١] .

ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين^(١) (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ)

[١١] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلاً « مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ » أى فرقتهم وطوائفهم . جمع (شيعه) وهى الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمحدوف . أى الأمم . أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف . « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[١٣] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ » أى الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين . وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزخشرى : كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجيبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللاثام . تعنى مثل هذا الإزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوز فى ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [٦١ / الصف / ٨] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تكملة للتسليمية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بين تعالى أنهم لا يتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتهم الآيات التى تشبه الملقحة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا » أى حيرت أوحبست من الإبصار، ومانراه شىء تتخيله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الاتصاف) : المراد ، والله أعلم ، معنى من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها . كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علم وفهم^(١) (لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ) الآية . أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيئتهم العناد وسيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم

أوضح السبيل وأدعاهما إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّواْ) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سُبُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا) وسحرنا محمد . وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدن والإصرار ، لا غير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُوْ شِهَابٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثني عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور ، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها . فإن النجوم هي كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّاهَا » أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّاظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها . أولللمفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدتها ووحدانيته « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ » أى اختلس « السَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَاتَّبَعَهُوْ » أى تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُّبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدًا نَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)

« وَالْأَرْضَ مَدَدًا نَهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالاً ثوابت « وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ » أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى في (الدرر)^(١) : أن العرب استعملته بهذا المعنى . كقول عمر ابن أبي ربيعة .

وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ يُوزَنُ وَزَنًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

[٢١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ لَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » أى من الأنعام والدواب وما أشبهها . قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتنأهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبيّ) .

والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى . وفيه :

(يقنع الناعتون) عوضاً عن (تشتهيه النفوس) .

عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ «أى وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبه إقذاره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجها إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبه مقصوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنَزِّلُهُ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّحَ لَوَاقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل للماء . وذلك أن السحاب بخار بصير ، بإصابتة الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله الميايمى . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بِجَرْمٍ مائها فيه أو تنميته ليثمر ويزهو . وجوز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجىء بالمرن الممطرة ، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » أى بقاديرين على إيجاده وإزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مر . أو بحافظين له فى أمكنة يبايعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلطه يبايع فى الأرض وجعله عذبا ورحم العباد بسقيه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فناءه . ومنه قوله ^(١) صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أف على هذا الحديث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لا يخفى علينا شئ من أحوالكم . وهو بيان لكمال علمه ، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه . وفي توكيد قوله (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) من كمال التأكيـد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُ وَحَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم في الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة ^(٢) (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٧] (وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » يعنى آدم « مِنْ صَلْصَلٍ » أى طين يابس مصوت « مِنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصور من (سنة الوجه) وهى صورته . أو مصبوب ، من (سن الماء) صبّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فیس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيّر جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه « وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل الإنسان . « مِنْ نَّارِ السَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحر .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُو سَاجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ » أى عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُو سَاجِدِينَ » أى تحية له وتعظيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » .

يعنى : وقد خلقتنى من نار فأنا خير منه . كما صرح به فى آية غيرها . وفى تكرير قوله : (مِّن صَلْصَلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كالبجاء من جاح غوايته ، وشدة تمرده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَاجِعٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرحم بالحجارة . أو شيطان يرحم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو راجع ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَآغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ)

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَّنَ لَهُمْ » أى المعاصي « فِي الْأَرْضِ وَلَآغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ » أى حق نهجه ومراعاته لا اعوجاج فيه . وهو أن لاسطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ »

أَجْمَعِينَ » قال المهايى : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، لغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أَدْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَامٍ » أى

سالمين أو مسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ »

غَلٍّ « أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَانًا » حال من فاعل (أَدْخُلُوهَا) أو الضمير فى (آمَنِينَ) « عَلَى مُرُرٍ » أى مراتب عالية « مُتَقَابِلِينَ » لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً « وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » أى لمن لم يتب من كفره . والجملة فذلكه لما سلف من الوعد والوعيد وتقريره . « وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ » أى عن نَبِيِّهِ . والضيف كالزَّوْر ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشف : عطف (وَنَبِّئُهُمْ) على (نَبِيُّ عِبَادِي) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٣] (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)
 [٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ)
 [٥٥] (قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ)
 [٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

«قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ
 أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فِيمَ تَبَشِّرُونَ » قال الزخشرى :
 هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب . كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . أو أراد إنكم
 تبشرونى بما هو غير متصور فى العادة . فبأى شىء تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة
 بشىء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشاره بغير شىء .

«قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ» أى الآيسين من ذلك . « قَالَ
 وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ،
 ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجزاها الله تعالى . والتصریح برحمة الله فى أحسن مواقفه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)
 [٥٨] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)
 [٥٩] (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)
 [٦٠] (إِلَّا امْرَأَتَهُ وَقَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروح « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرًا تَهُ وَقَدَرْنَا إِنِّهَا لَمِنَ الْفَٰئِرِينَ » أى الباقين مع الكفرة ، تهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازى من باب قول خواصّ الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو في علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكى عن الملائكة . قال في (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائه عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ » أى لا أعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايمى : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم . كما فصل فى سورة هود « قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرون به ، ويكذبونك « وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ » أى كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فىرى من الهول ما لا يطيقه « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَآ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمُ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرض له . فأوعده وقالوا ^(١) : (لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أفاده الزمخشري .

« قَالَ هَـٰؤُلَاءِ بِفَاتِي إِنْ كُنْتُمْ قَالِعِينَ » تقدم الكلام عليه فى سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبي ﷺ ، اعترض به تبعاً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَةٍ مِّنْهُم » أى غفلتهم التى ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه ، النصيحة البقية لهم ، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين فى وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة المحركة للأرض « عَلَيْهِمَا سَافِلَهَآ » قال المهايى لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمُ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، لرجهم على لواطهم « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق فى الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمرة « كَيْسَيْلٍ مُّتِّمٍ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعد ، وهم يصرون تلك الآثار .

قال الزخشرى : وهو تنبيه لقريش ، كقوله ^(١) (وَإِنَّكُمْ لَتَعْمُرُونَ عَلَيْهِمُ مَّصْبِحِينَ * وَبِالْلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لآبرة لهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن القيم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا - أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعْمُرُك) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره . ولم يوفق الزخشرى لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة . فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبيّ غيره . والعمر والعمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضاً فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيتة على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصفات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سُكْرَانِ : سُكْرُهُوَّى وَسُكْرُهُدَامَةٌ ومتى إفاقة مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟
الثاني - قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) . قال السيوطي في (الإكليل) :
هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً^(١) : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام في الفراسة ، الراغب الأصفهاني في كتاب (الذريعة) حيث قال في الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله وورائته .

وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله^(٢) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله^(٣) (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) وقوله^(٤) (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فرس السبع الشاة) فكان الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي . وإياه عنى النبي ﷺ بقوله^(٥) (المؤمن

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبي سعيد الخدري ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروء والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام^(١) (إن يكن فى هذه الأمة محدثٌ ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى^(٢) : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروح ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل^(٣) : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام^(٤) (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، أطلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوى فيه نور الروح الذى كور فى قوله تعالى^(٥) : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) كان ممن وصفه بقوله^(٦) (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهداً ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام^(٧) فى المتلاعنين (إن أمرهما بين ، لولا حكم الله) .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشى ، المدوى ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] . (٤) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] . (٦) [١١ / هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن عباس فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣١ - باب قول النبى ﷺ : لو كنت راجماً بغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

[٧٩] (فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ)

[٨١] (وَعَايَنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ» (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام . كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار ، فظلموا بأنواع من الظلم ، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه . «فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أى بعذاب الظلة ، وهى سحابة أظلمهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم «وَإِنَّهُمَا» يعنى قرى قوم لوط والأيكة «لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ» أى طريق واضح . وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال ^(١) (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) .

«وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ» يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامى .

«وَعَايَنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيهم . كالنفاة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

(لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) ^(١) فلما عتوا وعقروها ، قال ^(٢) (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ

لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْأَقْرَبُ أَنَّ الْعَظِيمَ)

«وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» أى من حوادث الدهر «فَأَخَذَتْهُمْ

الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع . وفي سورة الأعراف ^(٣) (فَأَخَذَتْهُمْ

الرَّجْفَةُ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

«فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم

التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه، فادفعت عنهم تلك الأموال

لما حاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» أى لإخلاقاً

متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لا تقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] .

(٢) [١١ / هود / ٦٥] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨] .

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ » أى فيجزى كلًّا بما كانوا يعملون « فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله^(١) « فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة . فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى^(٢) « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

« وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » قال الرازى : إنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز . (والسبع الثانى) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى^(٣) « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي » والواو فى قوله : « وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » لمطف الصفة كقول الشاعر^(٤) :

إلى الملكِ القَرَمِ وابنِ الهمَامِ وليثِ الكتبية فى المزدَحَمِ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (الثانى) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبالغة والإعجاز . أو مثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها، لا أنها هي المعنى. كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث^(١) (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته) عند الشيخين ، فعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذى أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هولا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللأثرى الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هي الفاتحة لظاهر الحديث - أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

« لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » يعنى : قد أوتيت النعمة العظمى ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - سورة الفاتحة ، ١ - باب ماجاء فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن الملى .

التي كل نعمة وإن عظمت ، فهي إليها حقيرة . وهي القرآن العظيم . فعليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيا لها . فإنه مستحق للإضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى لعدم إيمانهم ، الرجوّ بسببه تقوى ضعفاء المسلمين بهم « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفاءهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أى المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أى مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ما أنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لنبيئته وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فلاققسام من (القسم) لامن القسمة . وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أى أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوز تعلق (كَمَا) بقوله :

(لَنَسْأَلَنَّهُمْ) أى لنسألهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيسكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما من تقدم ، أو المشركون . وبمعنى بالإزالة عليهم إزال الهداية التي أبوها ، وجوز جعل الموصول مفعولاً أول للندير ، أو لما دل عليه من أنذر . أى النذير . أو أنذر المعصين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرّفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ)

[٩٦] (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) . أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أى : افرق بين الحق والباطل « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » أى الذين يرومون صدك عن التبليغ ، فلا تبال بهم « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ » أى حفِظْنَاكَ مِنْ شَرِّهِمْ ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ، له صلوات الله عليه ، لينهض بالصدع نهضة من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى ^(١) : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

(١) [٥ / المائدة / ٦٧] .

« الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » وصفهم بذلك، تسليّة له عليه الصلاة والسلام، وتهويناً للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوزّ في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعاً بتقدير (هم) . وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم ، كما روى ابن إسحق عن عروة : أن عطاء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم : من بنى أسد أبوزمعة ، كان النبي ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال : اللهم ! أعم بصره وأثكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث . فلما تآدوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى ^(١) : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه . فر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فأت منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتفض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أخص قدمه . ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود ^(٢) : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلّي في ظل الكعبة .

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤ . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٩ -

باب إذا ألقى على ظهر المصلّي قدر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد انحروا جزوراً في ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : فلقد رأيتهم قتل في قليب بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)

[٩٩] (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون . لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى ^(١) : (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ -) وقال ^(٢) : (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استئزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة . لقوله ^(٣) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . وقوله ^(٤) : (فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ) وقوله ^(٥) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

(٣) [٢ البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ الرعد / ٢٨] .

(٣) [٢ البقرة / ١٥٣] و [٨ الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ البقرة / ١٥٢] .

(٥) [١٦ النحل / ١٢٨] .

وقد روى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وتأويلاً لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسليم . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلّة الحكم ، أعنى الأمر بالتسبيح والحمد . والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن الحقوق بكل حي مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيدان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه . والمعنى دُم على العبادة ما دمت حيّاً . كقوله تعالى في سورة مريم ^(١) (وَأَوْصَيْنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ (اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن . إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدلّ له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ) وما في الصحيح ^(٣) عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنى لأرجو له الخير .

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ - ٤٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من إفراد البخاري) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية السكرية وهى قوله (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما فى صحيح البخارى^(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صلَّ قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً . فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ - باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخارى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦ - سُورَةُ النَّحْلِ

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى ^(١) (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده ، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . يحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعاني الثميرة ، وعلى التصرفات العالية . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية . وهذا أكل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهابي .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم . ليتفطن الغرض الذي يرمى إليه . ك (الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعي وما يَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة ، والحديد لمنافعه العظيمة . و (النحل) . و (المنكبات) . و (النمل) . لتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتى طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته في هذه السورة . وهي مكية . واستثنى ابن عباس آخرها . وعن الشعبي : إلا قوله تعالى ^(٢) (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبي : إلا قوله تعالى ^(٣) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) الآيات . وآيها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

(١) [١٦ / النحل / ٦٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦] . (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تقرر في غير ما آية ،
 أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ،
 استهزاء وتسكديبا بالوعد . ف قيل لهم (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير
 عنه بـ (أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللايذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه ، منوط بحكمه النافذ
 وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع .
 أو عن إتيان مبادئه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله
 تعالى (١) : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله (٢) (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
 وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وقوله (٣) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
 وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم
 معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها
 شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)
 « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ « رَدُّ لاسْتِعَاذِهِمُ النَّبُوَّةَ ، بِأَن ذلِكَ سَنَةٌ لَهُ تَعَالَى . وَلِذَا ذَكَرَ صِغَةَ
الاستقبال كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) « يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وَقَوْلِهِ (٢)
(اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) وَالرُّوحُ هُوَ الْوَحْيُ ، الَّذِي مِنْ جَمَلَتِهِ الْقُرْآنُ .
لَقَوْلِهِ تَعَالَى (٣) « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالرُّوحِ عَلَى نَهْجِ
الاستعارة . فَإِنَّهُ يُجِى الْقُلُوبَ الْمِيْتَةَ بِالْجَهْلِ وَ(مِنْ أَمْرِهِ) بَيَانٌ لِلرُّوحِ ، أَوْ حَالُ مِنْهُ ، أَوْ صِفَةُ ،
أَوْ مَتَعَلِقٌ بِهِ (يَنْزِلُ) . وَ(مِنْ) لِلْسَّبِيَةِ وَ(أَن أُنذِرُوا) بَدَلٌ مِنَ الرُّوحِ . أَيْ أَخْبَرُوهُمْ
بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى . فَقَوْلُهُ (فَاتَّقُونِ) مِنْ جَمَلَةِ الْمُنْذَرِ بِهِ . أَوْ هُوَ خُطَابٌ لِلْمُسْتَعْجِلِينَ ، عَلَى
طَرِيقَةِ الْإِلْتِفَاتِ . وَالْفَاءُ فَصِيحَةٌ أَيْ إِذَا كَانَتْ سَنَتُهُ تَعَالَى ذلِكَ ، فَاتَّقُونِ ، بِمَا يَنْفَاهِيهِ مِنَ
الْإِشْرَاقِ وَفُرُوعِهِ ، مِنَ الْاسْتِعْجَالِ .

قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : ثُمَّ دَلَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، بِمَا ذَكَرَ ، مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ
غَيْرُهُ ، مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَمَا يَصْلُحُهُ ، وَمَا لَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ مِنْ خَلْقِ
الْبَهَائِمِ لِأَكْلِهِ وَرُكُوبِهِ ، وَجَرِ أُنْقَالِهِ وَسَائِرِ حَاجَاتِهِ . وَخَلْقِ مَا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِهِ .
وَمِثْلُهُ مُتَعَالٍ عَنْ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

[٥] (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » *
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ « أى مهيئة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُبِينٌ »
 أى مخاصم خالقه مجادل ، يحدد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا
 لا ضدا « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى
 سورة الأنعام .

قال الزمخشري : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى ما يدفء أى يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيبقى البرد « وَمَنْفَعٌ »
 أى من نسلها ودرها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ « أى زينة
 « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردونها من مراعيها إلى مرايحها (بضم الميم) وهو مقرها فى دور
 أهلها بالعشى « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشري : من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب
 المواشى . بل هو من معازمها . لأن الرعيان ، إذا روجوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة ،
 فزيت بإراحتها وتسريحها الألفية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت
 أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه ^(١)
 (لَتَرَنَّاهُمْ وَزِينَةً) ^(٢) (يُورِي سَوَاءً تَسْكُمُ وَرِيشًا) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .
ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ،
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
« وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » أى أحمالكم « إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »
بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان في معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالنهية
بأنفسكم إلا بمجهود ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم « إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »
أى حيث سخرها لنا فعمكم . ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال
« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على (الأنعام) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل
(لتركبوها) فهى مفعول له أو مصدر محذوف . أى وتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع
موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزيناً بها . وسر التصريح
باللام في المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلى في
الأنصاف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمراً تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن
المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين
منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا في (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية الفائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزاً ، لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافي غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عام خبير . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية . والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن هذه الآية متمسكةً للقائلين بالتحريم ، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث . منها ما في الصحيحين ^(١) وغيرهما ، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شعبة والترمذي ^(٢) وصححه والنسائي ^(٣) وغيرهم من جابر قال : أطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ - باب النحر والذبح ،

حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٥ - باب ما جاء في أكل لحوم الخيل .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ - باب الإذن في أكل

لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين^(١) من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم
الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي^(٣) وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى
رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي
إسناده صالح بن يحيى . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحل . على
أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في (فتح البيان) .
وفي (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردّاً على الحنفية في قولهم
بوجوب الزكاة فيها . أى الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من المخلوقات في القفار والبحار . وصيغة الاستقبال
للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » .

في الآية فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسبية ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٥ - باب في أكل لحوم الخيل ،

حديث رقم ٣٧٨٨ . (٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ -

باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نَبَّهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحُسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) وَقَالَ تَعَالَى (٢) (يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ . فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ . فَقَالَ (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (٣) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٤) وَقَالَ (٥) (هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) . انْتَهَى . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) .

الثَّانِيَّةُ - قَالَ أَبُو السَّعُودِ : (الْقَصْدُ) مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ . يُقَالُ سَبِيلٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ . أَيْ مُسْتَقِيمٌ . عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ عَلَى نَهْجِ إِسْنَادِ حَالِ سَالِكِهِ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ الْوَجْهَ الَّذِي يُؤْمُهُ السَّالِكُ لَا يَعْدِلُ عَنْهُ . أَيْ : حَقٌّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِمَوْجِبِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدِهِ الْمُحْتَمُومِ ، بَيَانِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ لِمَنْ يَسْلُكُهُ إِلَى الْحَقِّ ، الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ . بِنَصْبِ الْأَدَلَّةِ وَإِرْسَالِ الرِّسْلِ وَإِثْرَالِ الْكُتُبِ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ . أَوْ مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِقَامَةِ وَالتَّعْدِيلِ . قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ . أَيْ عَلَيْهِ ، عِزُّ وَجَلُّ ، تَقْوِيمٌ وَتَعْدِيلٌ . أَيْ : جَعْلُهَا بِحَيْثُ يَصِلُ سَالِكُهَا إِلَى الْحَقِّ . لَكِنْ لَا بَعْدَ مَا كَانَتْ فِي نَفْسِهَا مَنْحَرِفَةً عَنْهُ ، بَلْ إِبْدَاعُهَا ابْتِدَاءً كَذَلِكَ عَلَى نَهْجِ (سُبْحَانَ مَنْ صَغَرَ الْبَعُوضُ . وَكَبَّرَ الْفِيلُ) وَحَقِيقَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ نَصْبِ الْأَدَلَّةِ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ حَيْثُ أَبْدَعَ هَذِهِ الْبِدَائِعَ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَا حَبٌّ يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ . وَعَلِمَ يَسْتَضَاءُ بِفَارِهِ . وَأَرْسَلَ

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلاً مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحي الفاطق بحقيقة الحق .
الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية
إلى معالم الهدى . المنجية عن فياق الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة - الضمير فى (وَمِنْهَا جَايَزٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل
عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التى لا يكاد يحصى
عددها ، المدرج كلها تحت الجائر . كقوله تعالى (١) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ،
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

قال أبو السعود ، بعدما تقدم : أى : وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق
وتعديله ، بما ذكر من نصب الأدلة لیسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد - وهذا هو الهداية
المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما
ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مغلّ بحكمته ، حيث يستدعى
تسوية المحسن والمسيء ، والطيع والعاصى ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى :
(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية
موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولكن لم يشأ . لأن
مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها . ولا حكمة فى تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك
التكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب ، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ،
التي بها فيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلى ، بعد الحيوان ، النبات ، تأثر ما مر من الإنعام
بالأنعام والدواب ، التى يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة
نفسها . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أى ومنه يحصل شجر . والمراد به ما ينبت من الأرض ، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أى ترعون أنعامكم « يُنَبِّتُ » أى الله عز وجل « لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ » أى الذى فيه قوت الإنسان « وَالزَّيْتُونَ » أى الذى فيه إدامه « وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ » أى اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصل « لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه ^(١) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ عِصَافَ نَبَاتٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ » .

قال أبو السعود - وأصله للرازي فى شرح كون ما ذكر حجة - : فإن من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل - علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لا يمكن أن يشبهه شيء ، في شيء من صفات الكمال . فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته ، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكير . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[۱۲] (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أى لنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لإصلاح ما ينط بهما صلاحه من المكونات «وَالنُّجُومَ» ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله تعالى: «مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ» حال من الجميع . على معنى جعلها مسخرات . لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص . فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فـ (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمي ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي . لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بنصب الليل والنهار وحدها . ورفع ما بعدها على الابتداء والخبر . وقرئ (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وما قبله بالنصب «إِنَّ فِي ذَلِكَ» أى تسخير ما ذكر «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» .

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَالنَّجْمُ) رفعاً ونصباً ، على أنه مفعول (لجعل) أى وما خلق « لَكُمُ فِي الْأَرْضِ » أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخير البحر ، وتعداد النعم به ، إثر امتنانه بنعم البر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشري : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأن ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شئ يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : فيه إدماج لحكم طبيّ . وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخللاً ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر في سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكير في باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، في خلقه إياه ، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما في الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً » كاللؤلؤ والمرجان « تَلْبَسُونَهَا » أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يزينّ بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذنون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحاجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث ، لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له . فعبّر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال (١) :

تَرَوْعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول ، أن النساء

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازى . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كاللغنى . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدروه في الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يحملونها حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تسكفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم : تلبسها نسائهم . لأنهم من جملتهم ، أو لكونهن يلبسها لأجلهم . وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهن ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً . انتهى .

قال السيوطى في (الإكمال) : في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بحنف الخالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حلياً) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلى النساء . فأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر . أنه سئل : هل في حلى النساء صدقة ؟ قال : لا . هي كما قال : (حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال في (فتح البيان) : وفي هذا الاستدلال نظر . والذي ينبغي التعميل عليه : أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد في الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاحِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (الخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » عطف على محذوف . أى لتنتفعوا بذلك (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، في مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلاً . مع أنها في تضاعيف المهالك . وعدم توسط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيدان باستغناؤه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَنِمَّ بِكُمْ فَأَنبَأَهُمُ الْمَلَكُ مِنْ نَحْبِهِمْ) (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَنِمَّ بِكُمْ فَأَنبَأَهُمُ الْمَلَكُ مِنْ نَحْبِهِمْ)

[١٦] (وَعَلَّمَ الْبَنِيَّاءَ فِي الْيَمِينِ) (وَعَلَّمَ الْبَنِيَّاءَ فِي الْيَمِينِ)

« وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي » أي جبالاً ثوابت « أَنْ تَنِمَّ بِكُمْ » أي تضطرب « وَأَنبَأَهُمُ الْمَلَكُ مِنْ نَحْبِهِمْ » أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُّهَا » أي طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى في الجبال . كما قال تعالى ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُّلًا) « لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ » أي بها إلى مآربكم « وَعَلَّمَ الْبَنِيَّاءَ فِي الْيَمِينِ » أي دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح ، برّاً وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أي في الظلام برّاً وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة . وتقديم الضمير للتقوى . وهذا أولى من دعوى الزمخشري : أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة

والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَمَنْ يَخْلُقُ » أى كل شيء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَنْ لَا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو ما يعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته ، مالا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشري ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى ^(١) (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) فجذب به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكير .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى ، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشري .

ولخط ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أى فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ما تقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى^(١) (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل ما بينهما بقوله^(٢) (أَقَمْنَ يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر ، إثرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التي هي أدلة الوجدانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٩] (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
 [٢٠] (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)
 [٢١] (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسميخزكم عليه «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» أى فأنى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أوالمعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لايقدررون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل^(٣) عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» أى هي جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان ، والنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً . فلذا احترز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) أى لايعترىها الحياة أصلاً . فهى أموات على الإطلاق ، حالاً ومآلاً « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى تلك الأصنام المعبودة « أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى يكون

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٦و٩٥] .

بعثها . وقد رُوي ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم .
تهكأ بحالها . لأن شعور الجناد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمعنى ، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل . كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ » أى لوحدايته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متمجبين من ذلك بقوله^(١) : (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال تعالى^(٢) : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ) وقوله تعالى « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » لأنه لا يحبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدها منها . كما قال تعالى ^(١) : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُكْتَتِبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلّوهم . كقوله تعالى ^(٢) (وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيَسَّ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله (لِيَحْمِلُوا) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما حقيقة ، على معنى أنه قدر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحقق عليهم . فتم الكلام عند قوله : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشريّ : حال من المفعول . أى : من لا يعلم أنهم ضلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلّوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل . فجعله لا يعذر « أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بأنيائهم « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسسِهِ ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم و (الإتيان) يتجاوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى ^(١) (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) ويقال أَتَى فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أَمْنِهِ . وَأَتَى عليه الدهرُ : أهلكه وأفناه . ومنه الأَتُو . وهو الموت والبلاء . يقال أَتَى على فلان أَتَوْهُ أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالحكي عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعفت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً . وقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) متعلق بـ (خر) . و (من) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد . لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم في ملكه وإن لم يقع عليه « وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ » أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ » أى يذلّهم ويهينهم بعذاب الخزي، لقوله تعالى (١): (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة ، بناء على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى ما لهم لا يحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله (٢): (أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل : حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم . « قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاققونهم « إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَاءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) هذا شمانة بهم ، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول ، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)

«الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ» هذا إخبار عن حال المشركين الظالمين أنفسهم بتبديل فطرة الله ، عند احتضارهم وحي الملائكة إليهم لقبض أرواحهم ، بأنهم يلقون السلم ، أى ينفادون ويسالمون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء في الأجسام . فاستعمل في إظهار الانقياد ، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) منصوب بقول مضمّر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه ، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الأخرى ^(١) (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ^(٢) . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْخِلُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْخِلُونَ لَكُمْ) ^(٣) . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى مقدراً خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم . وينال أجسادهم ، في قبورها ،

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كما قال تعالى ^(١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقوله (فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى ينس القيل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشمار بعليته لثوائهم فيها . ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) هو (أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فجدوا رحمة وكفروا نعمته - تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا » أى أنزل خيرًا ، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله ، مكافأة في الدنيا بإحسانهم . ولهم في الآخرة ما هو خير منها . فقوله (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ) كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى ^(٢) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله ^(٣) (فَأَنَّهُمْ اللَّهُ نُوبَ الدُّنْيَا وَحُسْنُ نُّوبِ الْآخِرَةِ) وقال تعالى ^(٤) (وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

إِنلَابِرَارِ) وقال^(١) (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى^(٢) : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) « كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخى إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تقرير المشركين ، وتهديدهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال « كَذَلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى ففادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِمْ » أى أحاط بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدهم به الرسل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ

نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ،

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا

حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

یخبر تعالیٰ عن اغترار المشركین بما هم فیہ واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تکذیباً
لرسل اللہ علیہ ، وطعننا فی الرسالة . وذلك قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) أى من البحائر والسوائب
والووائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، مما لم يُنزل الله به سلطاناً
ثم أعلم تعالیٰ مشاكلتهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من
الشرك والتحریم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالیٰ كارها لما فعلنا ، لَا نُنْكِرُهُ عَلَيْنَا
بالعقوبة ، ولما مكفنا منه . قال الله تعالیٰ راداً عليهم شبههم (فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ،
ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث في كل أمة ، أى في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا .
وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)
وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالیٰ يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك
في بنى آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض ، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالیٰ ^(۱) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ
لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)؟

(۱) [۲۱ / الأنبياء / ۲۵] .

فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للآئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً . فإن الآية من معارك الأفهام . فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعمل بالقدر وقال : حتى يقدر الله ذلك ، أو يقدرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِىَ عن فعل ما حرم الله قال : الله قضاء علىّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويماقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصديق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به - لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون ^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ^(٢) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرّاً على الظلم فهناه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا - لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغي فعله (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظناً (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدنتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد في الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون في القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون بدم بعضهم بعضاً ويعادى بعضهم بعضاً ويقا تل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلاماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حق ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفي الصحيحين ^(١) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أندرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أندرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعَذَّبَ بهم .

فلاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لافي ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستفدين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفترون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والدوق والوجدان الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والحرص . وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى ^(٢) (فَأِمَّا يَا تِجَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنَ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى ^(٣) : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال في سورة الأنعام ^(١) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى ^(٢) : (لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ثم أثبت القدر بقوله : (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدريّة . وكلاهما حق . وقال في النحل ^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فبين سبحانه وتعالى - أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففي فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب . كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٤) أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر في الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويغض الفواحش ، فيحب أن يمدح بالعدل والإحسان . وألا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن يفعلوا كذا ولا تفعلوا . وبين لهم وأزاح عنهم ، ثم تعدوا حدوده وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبين أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . (٣) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ :

لا شخص أغير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم في : ١٩ - كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن وليّ أمر أعطى قومًا مالا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه ، وكان وليّ الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لِقْطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا - لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب عليّ ، ولو فعلته لكان زيادة إغانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قاعة . ولم يكن يدعي فيهم ظلماً . وإن كان لم يُعِثْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين والآخريين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، حَكَمٌ عدل في كل ما جعله . ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا ، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يعدّ الأولين زيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتاج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ، لعدم اتباع الحق الذي بيّنه العلم . فإن الإنسان حيٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبي ﷺ ^(١) : (أصدق الأسماء الحارث وهمام) فالحارث الكاسب العامل . والهمام الكثير الهم . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال في الجامع الصغير : الشيرازي في (الألقاب والكنى) والطبراني في الكبير)
عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور . فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب . والحق مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذا تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصوّر الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوّر قد يكون علماً وقد يكون ظناً وخرصاً . فإذا كان علماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعاً للظن وماتمّ بهوى نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لدّد وتفريج ، لاحتجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقرّاً بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تسكّم بغير علم . ومن تسكّم بغير علم كان مبطلاً في كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فيما أن يكون جاهلاً ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه . فتبين أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم^(١) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) . انتهى .

وله تلمة سابقة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشاني في هذه الآية : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عِمَادًا وَتَعَمُّتًا عن فرط الجهل والإلزام للموحدين بناء على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من في العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفي القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركاً ، قال الله تعالى^(٢) (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٧] .

مَا أَشْرَكُوا) وقوله تعالى^(١) (كَذَّبَ لَكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعماد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث ما مثاله : فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البدهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . وتتناول عملائهم تنقطع قدرتنا عن تكميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند الملمين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شئ على النحو الذى يعلمه ، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهيّ عنده . ويعمل بما أمره به ويحْتَنِب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم^(٢) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصبر ، لو وقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التسكّم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال في موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدین . وقد جاء الكتاب الكريم بتشجيع اعتقادهم والتمنى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ) ^(١) فلا يسوغ لأحد منا، وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

[٣٨] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بين تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ، جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أى جاهدین فيها ف(جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى إنه يبعثهم ، فيبتون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حق ، فيكذبونه - وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ)
[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

« لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله
« وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ » أى فى أباطيلهم . لاسيما فى أيمانهم بعدم
البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة ^(١) (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) ثم
يبين عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شيء ما بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد على ما شاء تكوينه كقوله تعالى ^(٢) (وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِبَالٍ بَصَرٍ) وقوله ^(٣) (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعْثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .
قال الزمخشري : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَنْ نَقُولَ) خبره و (كُنْ فَيَكُونُ) من (كان)
التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . أى إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له : احدث ،
فهو يحدث عقيب ذلك ، لا يتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لا يمتنع عليه . وأن وجوده عند
إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الأمر الطاع إذا ورد على المأمور المطيع
الممثل . ولا قول ثم . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف
يتمنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إن (كن) إن كان خطاباً مع المعلوم فهو محال . وإن
كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ،
فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، رجاء ثوابه
وابتغاء مرضاته ، بقوله :

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ » أى مخلصين لوجهه ، أو فى حقه ، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صفار أبنائهم ، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية . وقوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى أودوا وأريد فتنهم عن الدين « لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالعلبة على من ظلمهم ، وإيرائهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالمهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على ما أودوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لا ظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إحياء الله لرسوله ، واصطفائه برسائه ، قيل في درء شبهتهم « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالدكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله (٣) « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعامة . وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) للفلاّني فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طَرَفٍ منه في (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « بِأَلْبَيِّنَاتٍ وَالزُّبُرِ » أى بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجار متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أى أرسلناهم . أو (ما أرسلنا) . أو (نوحى) أو (لا تَعْلَمُونَ) ، على أن الشرط للتبكيك والإلزام « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ » أى القرآن المذكور والموقف من سنة الغفلة « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أى مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ينظرون لأنفسهم فيمتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ » أى المكرات السيئات التى قُصَّتْ عنهم . فهى

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَنْ يَخْشِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهة لا يعلمون بها ، كما لا يشعر المكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[٤٨] (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّوْا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ)

«أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ» أى سعيهم فى المعاش واشتغالهم بها «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» أى لا يعجزون ربهم على أى حال كانوا «أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ» أى توقع للهلاك وخفاقة له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه «فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ» أى حيث يحلم عنكم ولا يماجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» أى جسم قائم له ظل «يَتَفَيَّوْا ظِلَالُهُ» أى يرجع شيئاً فشيئاً «عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ» أى عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا «سُجَّدًا لِلَّهِ» أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له «وَهُمْ ذَاخِرُونَ» أى صاغرون . وغلب فى جمعها من يعقل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعبر ما ذكر فيه ، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكاة .

لطيفة : لابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشرائع توجيهه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحل بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه في جهة واحدة . وهو في العشي على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغائتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدم الأفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ الْيَمِينِ) متعلق بـ (يتفيؤ) أو حال . كذا في (الغناية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(سجدة) [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ» أي الملائكة ، مع علو شأنهم «لَا يَسْتَكْبِرُونَ» أي عن عبادته والسجود له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

«يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» أي من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلو ، له تعالى . وقد صنف في ذلك الحافظ الذهبي كتاب (العلو) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرها . وأطرب فيها الحكيم ابن رشد في (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علو بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَإِيتِيَّ فَارْهَبُونِ)

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيتِيَّ فَارْهَبُونِ » .
إعلام بنبيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنى نص في معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن العدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلم ذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد الخصوص . فلما أريد الثاني صرح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله ^(١) :

فَإِنَّ النَّارَ بِالْمُؤَدِّينَ تَذْكِي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الانثينيتين تنافي الألوهية . فهو في معنى قوله ^(٢) (لَوْ كَانَ

(١) قائله نصر بن سيار . من أربعة أبيات ، يحسن الوقوف عليها ، ومعرفة سبب قولها .

قال ابن قتيبة في (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثاني .

كان يزيد بن عمر بن هبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيار . فكان لا يمدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثر ذلك على نصر ، قال :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

والبيت ...

فإن لم يُطْفِئها عُقلاء قوم يكون وقودها جُثَّة وهام

فقلت من التعجب : ليت شعري ! أيقاظ أمية أم نيام

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمَاءَ إِلَهِةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (فلذا صرح بها ، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنْزَلْنَاهَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ اللَّهُ) على أسلوب ^(١) * عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * .

(١) وعجز البيت :

* حَتَّى غَدَتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهذا الشاهد على نسبة إلى قائل معين . ويروى صدره عَجَزَا فِي بَيْتٍ آخَرَ ، هكذا :

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وَارِدًا عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

الشاهد فيه قوله (وماء) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل في المعطوف عليه ،

لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

والعلماء ثلاثة أراء في تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها - أن قوله : (وماء) لا يجوز أن يكون مفعولا معه ، كما لا يجوز أن يكون معطوفا

على ما قبله عطف مفرد على مفرد . بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذي ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا في ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ما قال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه .
وفى قوله (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ فَرْهَبُونَ) التفات عن الغيبة ، مبالغة فى الترهيب . فإن تخويف الحاضر
مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة
والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٢] (وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، اَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُوْنَ)
[٥٣] (وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللّٰهِ ، ثُمَّ اِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَاِلَيْهِ تَجَرَّوْنَ)
[٥٤] (ثُمَّ اِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ ، اِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ)
[٥٥] (لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ)

« وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ » مطوف على قوله (اِنَّمَا هُوَ اِلٰهُ وَاحِدٌ) اوعلى
الخبير ، اومستأنف . « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » أى العبادة لازمة له وحده . ولزومها له بنا فى خوف
الغير ، اذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله ^(١) : (اَفَغَيْرَ دِيْنِ اللّٰهِ
يَبْتَغُوْنَ وَلَهُ وَاُسْلِمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَاِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ) .

« اَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُوْنَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ
اللّٰهِ » أى فمن فضله وإحسانه « ثُمَّ اِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَاِلَيْهِ تَجَرَّوْنَ » أى لاتتضرعون
إلا إلهه ، لعلمكم أنه لايقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجوار : رفع الصوت . يقال :
جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ اِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ اِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ » أى بنسبة
النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة في رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :
 « لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم . واللام للعاقبة والضرورة
 « فَتَمَتُّوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
 إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشاني وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله في
 شيء . ثم بين تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
 كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ » . أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جاد « نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ »
 أى من الزرع والأنعام وغيرها تقربا إليها « تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ » أى :
 من أنها آلهة يُقَرَّبُ إليها . ومرّ نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه ^(١) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ
 مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) الآية ، فانظر تفصيلها ثمّت « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
 سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين
 هم عباد الرحمن بنات لله ، فنسبوا له تعالى ولدا ولاولده . واجترأوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة
 أدنى القسمين له من الأولاد ، وهو البنات . وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور ،
 أى يختارونهم لأنفسهم ويأثقون من البنات . وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله (سُبْحَانَهُ) و
 أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ،
 ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستثثار كما قال سبحانه ^(٢) (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١ و ٢٢] .

قِسْمَةٌ ضِيزَى) وقال تعالى^(١) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجنب الأقدس وفضاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) ، أَيْمُسِكُهُ وَعَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا »

أى متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كنايةً أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتمد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ » أى من أجله وخوف التعيير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيْمُسِكُهُ وَعَلَىٰ هُونٍ » أى محدثاً نفسه متفكيراً فى أن يتركه على هوان وذل ، لا يورثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حياءً « أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يعملون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويعملون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥١-١٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم « مَثَلُ السَّوْءِ » أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكرهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المناذى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنى عن العالمين . والكمال المطلق والتقديس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقهم ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئ المتقدمة « مَا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِنْ دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرّة بشؤم ظلم الظالمين « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى »

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » أى المسمى « لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأتقون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى ما لهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله ^(١) (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لىٰ عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَىٰ) يعنى جمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتعنى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدت ، مكتوباً (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ . أجل . كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ) الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء . قال أبو العلاء المعرى ^(٢) :

سَرَىٰ بَرَقُ الْمَعْرِةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعْنَىٰ وَخَدِّ الْقِلَاصِ كَشَفَتْ حَالَا وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتُ مَا لَا

(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع

بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق مرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ »
 أى معجلون إليها ومقدمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته فى طلب
 الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيون فى النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على
 ما حكاه الفراء . كقوله تعالى^(١) : (فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) وقرأ
 نافع (مُفْرَطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوزو الحدّ
 فى معاصى الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرط فى كذا) إذا قصر . ويقرب
 من الآية ما قص عنهم فى قوله تعالى^(٢) (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ
 لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِىَ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىَ إِنَّ لىٰ عِنْدَهُ وَلِّحُسْنَىٰ ،
 فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى^(٣) (وَدَخَلَ
 جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّىَ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) .

ثم ذكر تعالى نعمته فى إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليقامى صلوات الله عليه بهم
 بقوله سبحانه :

= معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف السكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه
 قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق
 عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَأْلَاهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَأْلَاهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى من

الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ » أى قرينهم ، يُغْوِيهِمْ . أو المراد باليوم يوم

القيامة . والولى بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة فى نفيه ،

وتهمهم ، على حدّ (عنا به السيف) « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ » أى فالتقرآن هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، وكل

ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته

فى آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثر قدرته فى إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله

من وحيه وهدهاء ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ بَيْنِ

فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

« وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى

بالنبات والزرع، بعد جذبها ويسمها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التدكير، ويعقلون وجه دلالة «وإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَفَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» أى سهل المرور فى حلقهم .

يبيّن تعالى آيته فى الأنعام بما ذكر ، ليستدل به على واحدائنته وانقراده بالألوهية . وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقلّب الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبدّله دماً فى جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة . وإنما ذكر الضمير فى بطونه هنا ، وأثنه فى سورة المؤمنين ، لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» . بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة ، ومفاته فى المشروب منها والمطعموم . (السَّكْرُ) مصدر سمي به الخمر . فهو بمعنى السُّكْر كالرُّشْد والرُّشْد . قال الفراء : السَّكْرُ الخمر نفسها . والرزق الحسن الزبيب والتمروما أشبههما ، ولا يقال : الخمر محرمة ، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام ؟ لِأَنَّ هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازى بجواب ثان .

وهو : أنه لاجابة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع . وخطب المشرّكين بها . والخمر من أشرّبتهم . فهي منفعة في حقهم . قال : ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السّكر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من الفحل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفي (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة ، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كافي (الكشاف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا في قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنه أشرف ما في الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأثربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعقاب ، دلائل قاهرة وبيّنات باهرة ، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً .. أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بناءها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بناءها بيوتاً تأوى إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعرش . وليس للنحل بيت فى غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافي لا يتعمدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد فى الخلایا . ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرى . فهى تتخذها أولاً . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى من كل ثمرة تشبهها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفى ، أو لفظ (كل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْ أَعْجَالٍ) الخ ، على (في) دلالة على معنى التبعية . وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها .
نبه عليه الزمخشري .

قال الناصر : ويتبين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبعية (من) المتعلقة باتخاذ البيوت . بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وكَّلَ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات . كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شئ شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَاسْأَلْكُمْ سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك في عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار في المواضع النائية فاسلكي راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوَعَر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللاً) جمع ذلول ، حال من (السبل) أى مذلة ذلها الله لك وسهلها . فهى تسلك من هذا الجو العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ » أى فنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النور أو مزاجها « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية في بعض الأمراض . وله دخل في أكثر ما به الشفاء والمعالجين . وقل

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرة النسبة إليه . وفي الصحيحين^(١) عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : اسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلاً وهو حارّ تحللت فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصالح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفي (العناية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أي فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بألوهيته . وأنه هو الذي ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنفة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاها ، وتلفظه شراباً .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤ - باب الدواء بالعسل ، وقول الله تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قال الحجة الغزالي (في الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ماسخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقول منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة - لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتها مستدير أو لامر بأم ولا خمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة . ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفاً به وعناية بوجوده فيها هو محتاج إليه . لينها عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقا تل بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجه الأحياء إلى خارج . وفي طبعه أيضاً النظافة . فلذلك يخرج جميعه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذي يعمل في الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذباً . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلّ العسل في الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفاً على نفسه من نقاده لأنه إذا نقد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لثلامذته : كونوا كالنحل في الخلايا . قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفقته وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يساخ جلدُه كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة ، ويضره السوس . ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح . وأن يفتح في كل شهر مرة . ويدخن بأخشاء البقر . وفي طبعه أنه متى طار من الخلية ، يري ثم يعود ، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا في (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزالي أيضاً في كتاب (الحكمة في خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق . لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجاً ، افرق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل في أجوافها عسلاً . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد ، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وما لاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم . فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تسكاد تجدد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح . فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث ربت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك . وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سنّ الوقوف وهي سنّ الشباب . والثالثة سنّ الانحطاط القليل وهي سنّ الكهولة . والرابعة سنّ الانحطاط الكبير وهي سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ

لِكَيَّ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي

رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ » أي أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ

أَرْدَلِ الْعُمُرِ » أي أضعفه وأردئه وهو الهرم . وقوله تعالى « لِكَيَّ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا »

اللام للصيرورة والعاقبة . أي فيصير ، إن كان عالما ، جاهلا . فيريكم من قدرته أنه كما قدر على

نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال في (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسي يعلم

الشيء ثم ينساه ، فلا يعلم بعد ما علم . أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل ، والمعنى لا يترقى في إدراك

عقله وفهمه ؛ لأن الشاب في الترقى ، والشيخ في التوقف والنقصان .

وفي (الكشف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان . وأن يعلم شيئا ثم

يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لثلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لثلا يعلم زيادة علم على علمه الأول . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية . وجوز فيه التنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق مما يليكم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى بمعطيتهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء . ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم ؟ كما قال فى الأخرى ^(١) (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية .

« أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجا لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أوفى تحريم ما أحل لهم « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا » أى من مطر أو نبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدرا. وإن جعل اسما للرزق ف(شيئا) بدل منه بمعنى قليلا . و (من السموات) متعلق بـ (يملك) على كون الرزق مصدرا . أو هو صفة لـ (رزقا) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أو لاستطاعة لهم أصلا . أو الضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون ، فكيف بالجناد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أندادا وأمثالا . والضرب للمثل فيه معنى الجمل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مثل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرِك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعت عظيم على سوء فعلهم . كذا في (شرح الكشاف) .

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهي . أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهى عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراك ، عقبه بالكشف لذي البصيرة ، عن حالهم في تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »
يعنى أن مثل هؤلاء في إشراكهم ، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يقصر في ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فإلّا الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله : (وَمَنْ رَزَقْنَاهُ) الخ على (مالكا) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكره الإتفاق منه في السر والجهر ، ليكون عاملا بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ) أى على ما هدى أوليائه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لا يستحقه شئ من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لا يعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطيق الفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لا يأتِ بنجحه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهرى : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذى عبدوه وهو لا يقدر على شئ ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحملهم إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان . فقال الله تعالى : هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لاتسوا بين الصنم الكل وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشري بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لانصر ولا تنفع . انتهى .

وناقش الرازي في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبحم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم ، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال في جوابه بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن . لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص . وأما الوصف في قوله (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى^(١) : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال ، في بحث أمثال القرآن ، في هذين المثليين ما صورته :

فالمثل الأول . يعني قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شيء . ينفق كيف يشاء على عبده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه مألئ لا يغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دونه ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق البين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سراً وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لا يقدر على شيء . لأنه لاخير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله^(١) : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ* فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منها على إرادته . لا أن الآية اختصت به . فتأمله فإنك تجده كثيراً فى كلام ابن عباس وغيره من السلف فى فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله . وأما المثل الثانى ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً . فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان . قد عدم النطق القلبى واللسانى ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حتى قادر متمسك بأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . فإن أمره بالعدل ، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به أمر لعباده به ، محب لأهله لا يأمر بسواء ، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله . وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه . وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعى الدينى والأمر القدرى الكونى . وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه . كما فى الحديث الصحيح^(٢) : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك . فقضاؤه

(١) [١٦ / النحل / ٧٣ و ٧٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩١

من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره السكوني^(١) (إِنَّمَا أَمْرُهُ) إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقضى . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب^(٢) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقوله (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) نظير قوله (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِي قَضَائُوكَ) . فالأول مله . والثاني حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد . وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق في أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأتى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري^(٣) : وقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته . لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبيل بن أبي نجيح عنه (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جرير عنه .

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثاني عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقالت فرقة : هي مثل قوله ^(١) (إِنَّ رَبَّكَ لَبِاُ لِمِرْصَادٍ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن ربي يحكمكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها ، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر . وقد فرق سبحانه بين كونه أمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم . وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدَّ العباد والأموال كلها إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية . وقد فرق شعيب بن قوله ^(٢) : (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وبين قوله ^(٣) : (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان . فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه . وقال جرير ^(٤) يمدح عمر بن عبد العزيز :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا عَوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ
وقد قال تعالى ^(٥) : (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلُمْتُ وَمَا رَقَقْتُ بَأَن تَلُومِي وَقَلَّتْ مَقَالَةُ الْخَطِلِ الظَّلُومِ
يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكأله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم ما فى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم ما يوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عريّة منهم . فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة . فإن علمه غائب عن أهلها ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و (اللمح) النظر بسرعة . أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لا يخفى . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تنتهى ، وأن ما يذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْهِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » عطف على قوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْئًا) منصوب على المصدرية . أو مفعول (تعلمون) والنفي منصب عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ » أى فندركون به الأصوات « وَالْأَبْصَرَ » فتحسون الرئيات « وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشي على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ » أى مذلات « فِي جَوْهِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » أى ما يمسكهن في الجو من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزالي في الحكمة في خلق المخلوقات ، في حكمة الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به .

نخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه . وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء . فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلوينه . فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى في البرارى ولا في البحائر حتى يفكّب على صدره . وكثيراً ما يمان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة . ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائرته ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يحرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يقتضى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلّب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله . وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعوونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل في ريشه من الحكمة ، أن الببل لا يفسده والأدران لا توسخه . فإن أصابه ماء كان أيسر انقراض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته . وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه . فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران عيماً وشمالاً . فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذى يعدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يتلعه بلعاً بلا مضغ ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمعدة . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحب العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه ببيض ولا يلد لثلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفًا على ما مر :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتًّا إِلَىٰ حِينٍ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا » أى بُيُوتاً أخرى وهى الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .
أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها
خفيفة الحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم فى مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هى
خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى . لأن ظهور المنة فى خفتها
إنما يتحقق فى حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل « وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا »
أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَكْثَنًا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ »
الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى .
ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويبنى . أو إلى
أن تموتوا .

تنبیه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت
فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا
فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ،
كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ » أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها « ظِلَالًا » أى
أفياء تستظلون بها من حر الشمس « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » أى بيوتاً ومعاقل
وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أولاً لأن الوقاية من الحرّ أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قطّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله ^(١) : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاختصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِالْسَّخَرِ » كالدرع من الحديد والزرّد ونحوها . التي يتقى بها سلاح العدو في الحرب « كَذَلِكَ يُعِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلَمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إمّا لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل . وقرئ (تَسْلَمُونَ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ » أى التى عددت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير النعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعتنا « وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها « ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كقوله (١) : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » (وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ) أى لا يطلب منهم العتي . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتي) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب . يقال : استعتبه أعطاه العتي بالرجوع إلى مسرته . والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموحدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ

كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى يؤخرون « وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها « قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ » أى أربابا أوعبدوها « فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصمهانى : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٥ و ٣٦] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقال تعالى^(٢) (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَالْقُوا » أى وألق الذين ظلموا « إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ » أى الاستسلام لحكمه

بعد إبائهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

أى من أن لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى^(٣) : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب : (كما قال القاشانى) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والنواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تسكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه ، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شراشر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لركة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطقى نور استعدادهم .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥] . (٢) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكشف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

[١٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى ^(١) (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى ^(٢) : (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمنى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى ^(٣) (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٤ / النساء / ٤١ و ٤٢] .

لَوْ نَسَوَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا). وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» مستأنف . أو حال بتقدير (قد) . قال الرازي : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) يبين أنه أراح علتهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير في وجه ذلك : إن المراد ، والله أعلم ، إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(١) ، (فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ)^(٣) وقال تعالى^(٤) (إِنَّا الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ لَرَآدُكَ إِلَّا إِلَىٰ مَعَادٍ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبيننا لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سياتى وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ « أى فيما نزله تنبيهاً لكل شيء » بِالْعَدْلِ « وهو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه » وَالْإِحْسَانِ « أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه » وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ « أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه » وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ « أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى » وَالْمُنْكَرِ « أى كل ما أنكره الشرع » وَالْبَغْيِ « أى العدوان على الناس » يَعِظُكُمْ « أى بما يأمركم وينهاكم » لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ « أى تَتَعَبَّرُونَ بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود^(١) : إن أجمع آية في القرآن ، خير وشر ، هذه الآية . وروى الإمام أحمد^(٢) : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته . فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكنم بن صبيح قال لقومه^(٣) : إني أراه يأمر بكمال الأخلاق وينهى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثاني من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧) .

عن ملائمتها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناناً . وعن عكرمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي ! أعد علي . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقد نقل أن بني أمية كانوا يسبون علياً ، كرم الله وجهه ، في خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم ما تراه .

قال الفاسر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلّ باغ . حيث يقول عليه الصلاة والسلام^(١) لعمار (وكان من حزب علي) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع علي يوم صفين . انتهى . ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى ، وكونها أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)
« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٣ - باب التعاون في بناء المسجد ،

حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال^(١) : نزلت في بيعة النبي ﷺ . كان من أسلم بايع النبي على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالآيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كالبايعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيد والتأكيد) ، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو فى قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنْقُضُوا) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و(الجعل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبى (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب - لكان معنى بليغاً جداً . وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الأيمان . وجلى أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ما ثبت عن النبي ﷺ فى الصحيحين^(٢) أنه قال : إني ، والله ! إن شاء الله ، لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها . (وفى رواية : وكفرت عن يميني) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ٧-١٠ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ
اللَّهُ بِهٍ وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا » تأكيد لوجوب الوفاء
وتحريم النقض . أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى انحطت على غزلها ، بعد أن أحكمته
وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .
ففى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكامل ، داخل فى زمرة النساء .
بل فى أدناهن ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» حال من الضمير فى (ولا تكونوا)
أى لا تكونوا مشابهن لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم
« أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش ، هى أزيد عدداً
وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين « إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهٍ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم
بكونهم أربى ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتهم من
أيمان البيعة لرسول الله ﷺ ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين
وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز
الحق من المبطل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة
ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجي ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ،
من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى
(الإكليل) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لاستفسار وتفهم . وهو المنفى فى غير هذه الآية . أو فى موقف دون موقف كما مر .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » تصريح بالنهاى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهى عنه ، تأكيذاً عليهم ومبالغة فى قبح المنهى « فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدْتُمْ » أى بصددكم عن الوفاء ، أو بصددكم غيركم « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيدان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ . وأشار (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلاحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله ^(١) : (وَأَعْتَدْتُ

لَهُنَّ مُتَّكَئَاتٌ (أى لكل واحدة منهن متكئة . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد (قَدَّمَ) مراعاة لهذا المعنى . ثم قال (وَتَذُقُوا) مراعاة للفظ الجمع . قال الشهاب : هذا توجيه للأفراد من جهة العربية ، فلا ينافي النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ مِمَّنَّا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ مِمَّنَّا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم ، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ » أى على أذى المشركين ومشاق الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنتى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحيمه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايى : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات . ويجزون بالأحسن فى الآخرة . فلا يقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا . بل يكمل جزاء أعمالهم الأذى بحيث يلحق بالأعلى . انتهى . وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء . وعشق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أمر ﷺ بأن يستعين بالله ويلتجئ إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه . وقد بينت آية ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أن هذه عادة الشيطان ، إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أى تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكروه ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكروه ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالسكواكب . والضمير في (به) لربهم والباء للتعدي . أوللشيطان والباء للسببية . أى بسببه وغروره وسوسته . ورجح باتحاد الضائر فيه . وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكاه مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] .

تنبيه :

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها في غيره عليه السلام التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى . والأكثر على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها ، الحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل النسخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرها ، من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية . وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن مخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يثوت من قبل الخوارق الكونية ويدعش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بين الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المكيّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه . وللبحث تفصيل فى موضع آخر . وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى ^(١) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى ^(٢) (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردّاً للحق ، وعناداً للهدى ، وتولياً للشيطان ، وتعبدًا لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبية على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ الْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والخبر السيئ والرجل الصادق . وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والقدس المطهر من الأدناس البشرية . وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِنْ رَبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفادة آثار الربوبية . وقوله (بِالْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره ، وقوله تعالى (لِيُذَيِّبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى : (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » .

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير مانقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيدان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى ووضح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بين . وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلاً أن ينطق به ، فضلاً أن يكون معاملاً له ! وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ

هُمْ الْكَاذِبُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تهديدهم على كفرهم بالقرآن ، بعدما طامش شبهتهم ورد طعنهم فيه . وقوله تعالى : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » رد لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهو . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يخاف عقاباً برده عنه ؛ وقوله تعالى « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى مافى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه . وقد كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لا يدعى بينهم إلا : (الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم^(١) أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأخش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنمأ) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية . وروى^(٢) أن النبى ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازى . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم بن

ثافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ - كتاب ما يكره من الكلام ، حديث ١٩

(طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١٠٧] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[١٠٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

[١٠٩] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ)

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ » .

لما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، في المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ما للردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلاف قوى وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدرًا أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباً باللعنة الدنية الفانية ، أى إيثارها لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفّث لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثّر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجلّى ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازى : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليسكون كالتاجر الذى يشتري بطاعته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسارته . فلهذا قال : (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَنْ) فى قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبين لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن السكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلطف بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق المكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلا ما استثنى . أفاده السيوطي في (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس^(١) ؛ أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بالنبي ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذراً . قال ابن جرير^(٢) : أخذ المشركون عماراً فَعَذَّبُوهُ . حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبي ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فَمُدُّ .

وقال ابن إسحاق^(٣) : إن المشركين عَدَّوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . يفتنونهم عن دينهم . ففمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضى الله عنه عبداً لبعض بني جُمَح . يخرج أُمَيَّة بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحمُ . أحمُ . حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضى الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمر بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلها وهي تآبى إلا الإسلام .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٣٣٩ من الجزء

الأول (طبعة الحلبي) .

قال سعيد بن جبیر : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل لير بهم فيقولون له : هذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ، مما يبلغون من جهده .

وقد ذكر ابن هشام^(١) في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب ، فانظروا .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالى ، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله ! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى ، لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم . فجاءوا به إلى ملكهم . فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذا أقتلك . فقال : أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأُتزل .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول

(طبعة الحلبي) .

ثم أمر بقِدْرٍ فَأُحْمِت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة . تلقى في هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لي ؛ بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبداً . فقام فقبّل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاق الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أى إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجاء في قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر (إِنَّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُوا)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله (جَاهِدُوا) في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا في سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَادِلُ) أى تحاج وتسعى في خلاصها . لا يهتمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شئ « مَّا » « وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » في ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة ، أُنذِرهم بنقمتهم في الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى هذه حالها مَثَلًا لكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فسكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نعمته . فدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدره بهذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولاً أول ، لثلاث يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن السكل مغلّ بتجاذب أطراف العظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم ما يدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن . والمراد بالقرية أهلها مجازاً ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَةٌ مُّطْمَئِنَّةٌ) أنه لا يعجبها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذْأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررها المحيط بهم ، باللباس الغاشى للابس . فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذافة المستعارة ، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف . كما قال تعالى ^(١) (وَقَالُوا إِنَّا نَنْتَهِجُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَعَرَّاتٌ كُلِّ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٧] .

شَيْءٌ رَزَقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال ههنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أَيْ هَنِئًا سَهْلًا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أَيْ جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى (١) : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافاً فقال : (فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أَيْ ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافة . فدعا (٢) عليهم بسبع كسبع يوسف . فأصابهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم في دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذي بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم في قوله (٣) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية ، وقوله تعالى (٤) : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَسْأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا) ، وقوله (٥) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخاري ، تعليقا ، في : ٨٠ كتاب

الدعوات ، ٥٨ - باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلاً ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرّمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى من الحرث والأنعام « حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلّوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ بِهِ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنْ اضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعمد قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِذَلِكَ .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلّوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطاحوا عليه من الأسماء بأرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لا تقولوا الكذب لما تصفه السنتكم من البهائم ، بالحل والحرمه فى قولكم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . ف (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله : (هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه . أو (هَذَا حَلَالٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لِّتَفْتَرُوا) بدل من التعليل الأول . أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف السنتكم الكذب ، أى لأجل قول تفتقروا به السنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : (لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم لترنهم على الكذب ، اجترأوا على الكذب على الله ، فنسبوا ما حللوه وحرموه إليه . وعلى هذا الوجه - كون الكذب مفعول (تصف) - فى وصف السنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجملة عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، ف (تصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدِّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف في الكذب للجنس . كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعري^(١) :

سَرَى بَرَقُ الْمَرْءِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَأْمَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذي يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرفه ، كقوله :

أَضْحَتْ يَمِينُكَ مِنْ جُودٍ مَصُورَةٍ لَا بَلْ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورُ الْجُودِ

فهو من الإسناد المجازي . أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال . فهو استعارة مكنية . كأنه يقول : ما بي هو الجمال بعينه . ومثله وارد في كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما في (شروح الكشف) .

وما في الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت . أفاده في (العناية) . واللام في (لَتَفْتَرُوا) لام الصيرة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض آخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصد هم لذلك غير بعيد . وفي قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ ...) الآية ، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يمتد به لافي الدنيا ولا في الآخرة . أما في الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما في الآخرة فلم يفترون عذاب أليم ، كما قال^(٢) : (نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ (هذا الجزء) .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤] .

أو حلال شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .
أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل . فلم أزل أخاف
الفتيا إلى يومى هذا .

قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى
بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنة رسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأى المقدمين
له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن
كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول
الله له : كذبت .

قال ابن العربى : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل
الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا
وكذا ، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ ، بيّن ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم
مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافتراءهم بأن ما حظروه لا سند له فى
شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُّورٌ رَحِيمٌ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى

في سورة الأنعام في قوله تعالى (١): (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ...) الآية «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» أى فيها حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فاستحقوا ذلك . كقوله (٢)
(فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه في تفسيرها مما يحى هنا ، فتذكر . قالوا : في الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله في قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «لَنْ تُبْرَأَ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسُوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا» أى العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنْ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» أى التوبة «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته في التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أى إماما يقتدى به ، كقوله تعالى (٣) : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمة من الأمم ، لاستجاعه كالات لا توجد في غيره «قَانِتًا لِلَّهِ» أى خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفًا» أى مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ» أى قائماً بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى^(١) (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به «أُجْتَبِهَ» أى اختاره واصطفاه للنبوّة «وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ)
[١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

«وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» أى من الذكر الجميل . كما قال^(٢) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال^(٣) (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى آدَمَ إِبْرَاهِيمَ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليعتقوى على القيام بحقوق العبودية «وَأَتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ» أى فى عالم الأرواح «لِمَنِ الصَّالِحِينَ» أى المتمكنين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

«ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى بمد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناها إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لا تتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانى . وفى (الإكليل) استدلل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٠] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ و ١٠٩] .

لطيفة :

قال الزحشرى : فى (ثم) هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجل ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان . ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلاً مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبى ﷺ الأسمى ، الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوّاً أمره بذلك فى القرآن العظيم . فى ذلك تعظيم لهما جميعاً . لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر . على ما مهدناه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لعله .

قال القاشانى : أى مافرض عليك ، إنما فرض عليهم . فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك ، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيفهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع الخفية ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة ، من الرفق واللين وحسن الخطاب ، من غير عنف . فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهب نفسك ، على مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ ، حسرات ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبق على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جيل . فما شرعه لك فى الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»
 أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كالكلم. فإن كان لكم قدم فى الفتوة،
 وعرق راسخ فى الفضل والكرم والروءة ، فتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ،
 وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ألا تراه
 كيف أكد به بالقسم واللام فى جوابه ، وترك المضمرة إلى المظهر حيث ما قال (لَهُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ) بل قال (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر .
 فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتسكدر بظهور
 صفة النفس . وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه . فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس .
 وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسيء
 بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها .
 فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجانى . أفاده القاشانى .

تنبيهات :

الأول : فى (الإكليل) : قال ابن العربى : فى الآية جواز المائلة فى القصاص . خلافاً
 لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن
 سيرين والنخعى ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعى : سئل عن الرجل يخون الرجل
 ثم يقع له فى يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية .
 ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل في القصاص والمائلة في استيفاء الحق .

الثاني - قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أخذ ، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسم . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، حين استشهد . فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثل به . فقال : رحمة الله عليك . إن كنت لما علمت ، لو صولاً للرحم فعولاً للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك ، لسرتني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله ﷺ . يعني عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف . لأن صالحاً (أحد رواه) هو ابن بشير المري ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخاري : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً . ناساً ستمهم فنزلت الآية . فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول - في مقدمة التفسير - يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة - ولا إلى ردّ ما روى من هذه الآثار . إذ به يتضح عدم التنافي . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله تعالى ^(١) (وَجَزَّاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) ثم قال ^(١) (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) الآية . وقال ^(٢) (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ) ثم قال ^(٢) (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) انتهى .

ثم أكد تعالى الأمر بالصبر ، ليقوى الثبات والاحتمال ، لسكل ما يلاقيه في سبيل الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

« وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » أى بمعوته وتوفيقه « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على الكافرين ، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يعمكرون من فنون المكائد « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .
تعليل لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلوهم ويظهرهم على أعدائهم . قال ابن كثير :

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى^(١) (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتِي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وقوله لموسى وهرون^(٢) (لَا تَخَافَا، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى^(٣) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وقوله^(٤) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) .

قال أبو السعود: تكرير الموصول للإيدان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداها تنمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو عليه الصلاة والسلام داخل في زميرتهم دخولاً أولياً. وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شابعه. عبر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لافتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكن بك صابرينَ فَإِنَّمَا صبرُ الرعية عندَ صبرِ الرأسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجركَ بَعْدَهُ وَاللهُ خيرٌ مِنكَ للعباسِ

قال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

وعن هَرَم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لي . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧ - سورة الإسراء

وتسمى سورة بنى إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف فى كونها مكية . نعم استثنى بعضهم منها: ^(١) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) وآية ^(٢) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية ^(٣) (قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ) الآية وقوله ^(٤) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا ...) الآية ، وقوله ^(٥) (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) لما ذكره فى أسباب نزولها . ويأتى البحث فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٨] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٥) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

يمجد تعالى نفسه بقوله (سُبْحَنَ) وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى (الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى سيره منه ليلاً . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهزمة (أسرى) ليست للتعدية . ولذا عدى بالباء . وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى) لإفادة السرعة في السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله ، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرامه . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر في (الاتصاف) قال : ونظيره في أفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى^(١) (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوجدانية هي المقصودة في قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوجدانية .

(١) [١٦ / النحل / ٥١] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان فى بعض الليل أخذاً من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفاً كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أرقّت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هو المراد من البعضية . وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة . وأصله من الواو . أسرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وهو غريب . وفى تخصيص الليل لإعلام بفضلته لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد (بعده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ . وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ، من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ واثباته لأوامره - ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودية .

قال ابن القيم فى (طريق المجرتين) : أكل الخلق أكلهم عبودية . وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه ضرورة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ : أصلح لى شأنى كله ولا تسكنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنّما أنا عبد . وكان يقول ^(١) : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم . إنّما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمّة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب وأذكّر فى الكتّاب

مرّيم ، حديث رقم ١٢١٤ .

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال (سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرَئِي بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وقال ^(١) (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال ^(٢) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفي حديث الشفاعة : أن المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمي حراماً ، كبلده ، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلثه . وقوله سبحانه (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده (والأقصا) بمعنى الأبعد . سمي بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى (الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ) أى جوانبه بركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكثفتها البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم وبعينهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجهم إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوره الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشد الرحال ^(٣) بعد المسجدين إلا إليه ،

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٣) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الح . أخرجه البخارى فى : =

ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد^(١) والنسائي والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني بيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازي في (عرائس البيان) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طور سيناء وطور زيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال ، مواضع كشف الحق . لذلك قال (بَرَكْنَا حَوْلَهُ) . انتهى .

والالتفات في (بَرَكْنَا) لتعظيم ما ذكر . لأن فعل العظم يكون عظيماً . لاسيما إذا عبر عنه بصيغة التعظيم . والنسكته العامة تنشيط السامعين .

= ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٦ - باب مسجد بيت المقدس ،

حديث ٣٧٩ ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة

رقم ١٧٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) .

وأخرجه النسائي في : ٨ - كتاب المساجد ، ٦ - باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه .

وقوله تعالى (لِرَبِّهِ و مِنْ ءَايَاتِنَا) إشارة إلى حكمة الإسراء. أى لكى نرى محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل ، مسيرة شهر ، ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر فى قطع الشبهة ودفع الوسائوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان . وقد تعترض الشبهة والوسائوس فى العقليات . لأنه لا يشك أحد فى نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يري رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من (التأويلات) لأبى منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق^(١) : كان فى مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلاً . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهرى وابن سعد وغيرها . وبه جزم النووي ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وفى (إنسان العمون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة . وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنى المقدسى قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : فى (زاد المعاد) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) . وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرة قبل الوحي لقوله فى حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ومرتين بعده . وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات ، جعلوه مرة أخرى . فكما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذى عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . وبالعجب لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً ، ثم يقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى . ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضى عياض ، عليه الرحمة ، فى (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن (والشهور عنه خلافة) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى^(١) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ) وما حكوا عن عائشة : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله (بيننا أنا نائم) . وقول أنس : (وهو نائم في المسجد الحرام) وذكر القصة . ثم قال في آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة . وهذا هو الحق ، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة . وهو قول الطبرى وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسرائ بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسرائ الذى وقع التعجب فيه بمعظم القدرة والتدح بتشريف النبي وإظهار الكرامة له بالإسرائ إليه . قال هؤلاء : ولو كان الإسرائ بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح . ثم اختلفت هاتان الفرقتان : هل صلى بيت المقدس أم لا ؟ ففي حديث أنس وغيره صلواته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالنا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضى عياض : والحق في هذا والصحيح ، إن شاء الله ، أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كلها . وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسرائ بجسده وحال يقظته استحالة . إذ لو كان مناماً لقال (روح عبده) ولم يقل (بعبدته) وقوله^(٢) (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) ولو كان

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٥٣ / النجم / ١٧] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذكر في الحديث ، من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس في رواية أنس (أوفى السماء) على ماروى غيره . وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعتهم مع موسى في ذلك .

وفي بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعني جبريل ، بيدي ، فخرج بي إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدره المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس : هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، لارؤيا منام .

وعن الحسن فيه بيتاً أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقممت فجلست فلم أرسئاً . فعدت لمضجى . ذكر ذلك ثلاثاً ، فقال في الثالثة : فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بين في أنه بجسمه .

وعن أبي بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجذك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بي في مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة - وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذر رضي الله عنه . عن النبي ﷺ : فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فخرج بي .

وعن أنس : أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم . وعن أبي هريرة : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي . فسألني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، ورفع الله لي أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضي عياض (في إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا (فسمها (رؤيا) . قلنا : قوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يردّه لأنه لا يقال في النوم (أسرى) .

وقوله (فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من السكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سماها في الحديث مناماً ، وقوله في حديث آخر : بين النائم واليقظان . وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت - فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام) فعمل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليلة . وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله (استيقظت وأنا في المسجد الحرام) لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملا الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه . ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

وجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفي رواية هدية عنه (بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع) . وقوله في الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيكون سمي هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن وذنو الرب ، الواقعة في هذا الحديث ، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منكورة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم في (زاد المعاد) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس بقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة بقظة ومرة مناماً . وقيل بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فتيل هو غلط ، وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء ، فأسرى به نجاة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثر عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولوا كان مناماً وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه الغائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تبأشر بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدي الله عز وجل . فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومن سواه ، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة . كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبدنه في ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملاء الأعلى . ومن كشف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا ، فليُنظر إلى الشمس في علوّ محلّها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن . وهذه النار تكون في محلّها ، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فَقُلْ لِلْعَمَلِ الثَّوَمَةُ إِيَّاكَ أَنْ تَرَى سَنَا الشَّمْسِ فَاسْتَغْثَى ظِلَّامَ اللَّيْلِ

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدى في (حواشي البيضاوي) : والمعراج بروحه في اليقظة - وهو الذي أشار إليه ابن القيم - خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوي له : بأنه نوع مراقبة والسلخ ، والذي ذهب إليه الصوفية ساقط . لأنه فوقه بكثير . بل غديره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذي فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيم من أنه إسراء بالروح - فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازياً . والحقيقة أنه كشف روحاني . وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات . وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفي (العقائد النسفية وحواشيتها) : الخرق والالتئام على السموات جائز . لأن الأجسام كلها متماثلة في تركيبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام . وكذا الأجسام الفلكية . والله تعالى قادر على الممكنات كلها . فيكون قادراً على الخرق في السموات ، لأنه ممكن فيها . وفي الرازيّ براهين آخر . فانظرها .

جاء في كتاب (إظهار الحق) أن بمض أهل الكتاب مارى في المعراج ، فَبُسَّتْ بَأَن صعود الجسم العنصرى إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ) . وأنه نقل حيّاً إلى السماء لثلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرّحت في صعود (إليا) في الفصل الثانى من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّ به في قوله تعالى ^(١) (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وإيليا نبيّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهبوا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبْسِطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن في بطاح أريحا . شاهده خليفته الإشاع النبيّ بعده . كذا في تاريخ الكتاب المقدس ، و (إيليا) هو إلياس ، و (الإشاع) هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد . وقد نوّه بالأول في سورة الصافات بقوله تعالى ^(٢) (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ...) الآيات

السادس - قيل : إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ .

وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقى كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبى الفدا) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

(١) [١٩ / مريم / ٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٢٣-١٢٦] .

لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمي مسجداً بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : في التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، إن أراد به أن تكون الليلة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ونظارها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر . فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عنها . فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينيها ؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التي يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت في الصحيحين ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الصحيحين ^(٢) عنه :

(١) أخرجه البخارى في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ١ - باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، الحديث رقم ١٧٥ (طبعنا) .
(٢) أخرجه البخارى في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ - باب تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ (طبعنا) .

تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . فَإِنَّهُ نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ .

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها ، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح . وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه . والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحى . ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم . ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها . لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها . ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت . وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ . ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية . بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها . ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه الوحي ولا الزمان بشيء . ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات . كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله . وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء . فهذه

الليلة في حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى .
نقله الشمس ابن القيم (في زاد المعاد) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم (في زاد المعاد) . اختلف الصحابة : هل رأى النبي ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصَحَّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصَحَّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . ^(١) وصَحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالوا : إن قوله تعالى ^(٢) : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصَحَّ عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال في لفظ آخر : رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعيني رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى ^(٣) (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) ثم قال ^(٤) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئى جبريل . رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد في قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

(١) [٥٣ / النجم / ١٤ و ١٣] .

(٢) [٥٣ / النجم / ١١] .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣] .

التاسع : قال الجاحظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) - بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس - وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبي حَبَّة وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع في المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازي عن بعض المعتزلة رده لجل فيه - ساقها - صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها في الحقيقة بحمدته تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فَاتَهُمْ بسبب ذلك خير كثير . وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المفعول أو الواقع ، بوجه ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذي علم عليم . وقد بقي ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم - سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدي وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلًا فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب بن الحنفية وعروة وسفيان الثوري والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة (الدر المنثور) للحافظ السيوطي .

وأما طريقه في الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس في أحاديث المعراج أصح منه . ورواه الزهري عنه عن أبي ذر . ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة . وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا)

[٣] (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

« وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه . فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازي : لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه . وقال الشهاب في (العناية) : عقت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجة . لأنه صح ثمة التكليم ، وشرف باسم التكليم مدججاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزل عليه . وإن شئت فوازن بين (أسرى بعبده) . و (آتينا موسى) . وبين (هدى لبني إسرائيل) . و (يهدى للتي هي أقوم) . و (الواو) استثنائية أو عاطفة على جملة (سبحان الذي أسرى) الخ لا على (أسرى) ، لبعده وتكلفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ (جعلناه) ، وهي تعليلية .

وقوله : (أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا) أي ولياً ومعبوداً تكونون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله ، أن يعبد وحده لا شريك له ، وقد قرئ (أَلَّا يَتَّخِذُوا)

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لثلاث يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أَنْ) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .
الثانى : أن (أَنْ) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . (فمعليل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعية . وقوله : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهيج وتنبية على المنة . والإنعام عليهم فى إنباء آبائهم من الفرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيماء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ (الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة ، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلمون عليه سواه . وقوله (عَبْدًا شَكُورًا) أى لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا)

[٥] (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا)

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها . والافساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفدنا . أى أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله (لَتُفْسِدُنَّ) جواب قسم محذوف مؤكداً لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : (وَقَضَيْنَا) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم (قضاء الله لأفعلن كذا) فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و (مرتين) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن ثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتتعظمن عن طاعة الله تعالى ، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذه على أولى المفسدين « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مَقْضِيًّا لا صارف له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

[٧] (إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

[٨] (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُذْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هذه المؤاخذة الشديدة ، ردونا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطًا . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله من ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب (إِذَا) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عدت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراس النفسانية إنما تظهر فى الوجه . كمنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيل : الوجه بمعنى الرؤساء . وهو تكلف . واختير هذا على (لَيْسُوا وَكُم) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم أَلَمْ النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله (وَلِيَتَّبِعُوا) . انتهى .

وقوله تعالى «وَلْيَذْخُلُوا الْمَسْجِدَ» أى الأقصى «كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا» أى يدمروا «مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا» أى عظيمًا فظيماً ، والتبير : التدمير . وكل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ» أى إذا أخلصتم للإنبابة ، وأحسنتم الأعمال ، وأتمم الكتاب وما نزل إليكم ، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال «وَأِنْ عُدْتُمْ» أى بعد هذه التوبة والإنبابة إلى الاستكبار «عُدْنَا» أى إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا .

«وَجَعَلْنَا» أى يوم القيامة «جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» أى محبساً وسجنًا يحصرهم فى العذاب والحerman عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان - (حصيراً) - اسماً للمكان فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصراً أى محيطاً بهم ، وفاعل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقتها . فإما لأنه على النسب . كلابن وتامر . أو لعله على (فعيل) بمعنى (مفعول) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقى أو لتأويلها بمذكر . انتهى .

وقيل : حصيراً ، أى بساطاً كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى (١) : (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

(١) [٧ / الأعراف / ٤١] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم في فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة ، وقع من الاختلال في عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فعوجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيت المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يرعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم في الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله في الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام في مملكته عجولين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكنهة . وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللها من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أشور ، ففتح السامرة - بلدهم - وسباهم إلى أشور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك أشور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كهناً من اليهود ليقيم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبى الأول .

ثم قام ، بعد ذلك الملك الشرير ، ابنه . فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسا من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثاني بعد ثمانى سنين من الأول .

ثم قام فيهم ملك أشرٌّ ممن تقدم - وهو آخر ملوكهم - وفي أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضاً بيت المقدس ، وأسره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبي كل شعب يهوذا ، ماعداً مساكن الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هذه المملكة . وكانت إقامتهم في بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق في خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيون على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتملكوا بيت المقدس . وهدم تيمطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم ، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده . وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة . وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم ، إلى أن سارت هيلانة ، أم قسطنطين ، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر ، الذي يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبني في قبائه مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبني قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة في كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنسه ، وفي تفسيرنا لألفاظها كفاية في فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ما جريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ما حرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفاعيلهم التي أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا في سورة يوسف ؛ أنه ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هي الآيات في العبر تجلت في سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها . وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعالى^(١) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم التي فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشري : وأما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف . لما في إبهام الموصوف بحذفه ، من نخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أي يبشر المخلصين في إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ، ويجتنبون السيئات ؛ أن لهم في الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ » أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ الْإِنْسَانُ

عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدي إثر بيان حال الهادي . وإظهار لما بينهما

من التباين . والمراد بالإنسان الجنس ، أسند إليه حال بعض أفراد . أو حكى عنه حاله فى بعض

أحيائه . فالمعنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لاخيره فوقه من الأجر

الكبير . ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الأليم ، وهو - أى بعض منه وهو

الكافر - يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور ، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال ^(١)

(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومن قال ^(٢) (فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى

عنهم - وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراد . عجولاً

يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب

وهو آتية لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية

على اللج والتماهى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيائه ، كما عند

الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر . وكان الإنسان بحسب جبلته

عجولاً لاجترأ لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً . وكان

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لا يتدبر في أموره حتى التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية في القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التي كل منها برهان نيرٌ لا ريب فيه . ومنهاج بينٌ لا يضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ » أى جعلناها ، بهيئتهما وتعاقيهما واختلافهما في الطول والقصر ، علامتين تدلان على أن لهما خالفاً حكماً . « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ » أى يجعلها مظلمة « وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة . والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار . وإما حقيقية . وآية الليل والنهار نيرٌ أحدهما . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور في نفسه ، أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . ويجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات . ذات أشعة تبصر بها الأشياء ؛ فالإسناد في (مبصرة) مجازى إلى السبب العادى ، أو تجوز بعلاقة السبب . وقوله تعالى « لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ (جعلنا) أى لتطلبوا في النهار رزقاً منه سبحانه ، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما في ضمن السنين من الأشهر والليالي والأيام ، أو الحساب الجارى في المعاملات ، كالبيع والإيجارات . وفي العبادات ، أى لتعرف مضى الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسابان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفي الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ » أي مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم « فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً » أي بيناه في القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى^(١) « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

[١٤] (أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

[١٥] (مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ،

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » أي ألزماه عمله الصادر منه باختياره

خيراً أو شراً ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق في العنق ، لا ينفك عنه بحال .

قال الطبري^(٢) : المعنى : وكل إنسان ألزماه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من

شقاء أو سعادة بعمله ، ، في عنقه لا يفارقه . وإنما قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) مثل

لما كانت العرب تتفادى به أو تتشام من سوايح الطير وبوارحها . هـ .

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير مقيماً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجوِّ ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، ممتى الخير والشر بالطائر ، تسمية للشيء باسم لازمه .

قال الطبري^(١) : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائر في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاء يورده سعيماً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن . وإنما أضيف إلى العنق ولم يضاف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين . فخرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق . كما أضافوا جنيات أعضاء الأبدان إلى اليد ، فقالوا : ذلك بما كسبت يده . وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذا . قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وحاصله - كما قاله الرازي - أن قوله : (فِي عُنُقِهِ) كناية عن اللزوم . كما يقال (جعلت هذا في عنقك) أي قللتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال (قللتك كذا وطوقت كذا) أي صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أي صارت الولاية ، في لزومها له ، في موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أي يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجْ لَهُ » أي نظهر له « يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أي البعث للجزاء على الأعمال « كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » أي يجده مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أي شهيداً بما عملت .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الفاشاني : (كَتَبًا) هيكلاً مصوراً يصور أعماله (يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لا مطوياً كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له (أَقْرَأُ كِتَابَكَ) أى اقرأه قراءة الأمور الممثل لأمر أمر مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى المملوكة . سواء كان قارئاً أو غير قارئ . لأن الأعمال هناك ممثلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لا على سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأعمى (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً بإياها ، نصب عينها ، مفصلاً لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى « مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » قال أبو السعود : فذلك لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق ، ولزوم الأعمال لأصحابها . أى من اهتدى بهدائه ، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه ، لا تمخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى « وَمَن ضَلَّ » أى عن الطريقة التى يهديه إليها « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » مؤكداً لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى (١) « مَن يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَّكُنْ لَهُ وَنَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَن يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَّكُنْ لَهُ وَكِفْلٌ مِّنْهَا » . وقوله تعالى (٢) « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » من حمل الغير وزر الغير ، وانتفاعه بحسنته ، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع ، جزاء شفاعته ، لا جزاء

(١) [٤ / النساء / ٨٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٢٥] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين . وما يحمله المضلون ، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خص التأكيـد بالجملة الثانية قطعاً للأطاع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إثـربيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هـدـايته ، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبينة على الحكم البالغة ، أن نـعـذب قومًا حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعم من الديوى والأخروى ، لقوله تعالى (١) (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى (٢) (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُمَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله (٣) (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال تعالى (٤) (وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قومًا عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٤] . (٢) [٦٧ / الملك / ٩٠٨] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٤) [٣٥ / فاطر / ٣٧] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة . ولا يعذب أحداً إلا بذنبه .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا)

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوي لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قومًا عذاب استئصال (أمرنا مترفيها) يعنى متفهميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (ففسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته (فحق عليها القول) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطفيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج . (فدمرناها تدميراً) أى فخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف . وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا . كما جرى لبیت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ما قدمنا بيانه . وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقي تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم أكد . وإنما حذف مفعول (أمرنا) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهتدى إليه . وفى إثبات (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : (تدميراً) أى كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع .

قال القاشاني : إن لكل شيء في الدنيا زوالاً . وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقاءه وثباته ، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها عن الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلا بد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشرأ بنعمة الله ، واستملاً لها فيما لا ينبغي . وذلك بأمر من الله وقدر منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصّت أنباؤهم في القرآن العظيم ولم تقص . و (القرون) جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص (نوح) ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .
« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي لا يخفى عليه شيء منها . فيدرك سرها وعلنها وسيجازي عليها .

والآية تدل - كما قال الزمخشري - على أن الذنوب هي أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتم ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

[١٩] (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . أى ما نشاءه من بسط الدنيا عليه أو تقديرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذمومة على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصياً فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب ، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه ، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلية فى معنى قوله (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمتناً وخيراً . وفى قوله تعالى : (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) أى ما يحق ويليق بها من الأعمال الصالحة ، تبين لقوله : (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب النهى عنه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا نُمَدِّدُ هَآؤُلَآءِ وَهَآؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

[٢١] (أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[٢٢] (لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)

« كَلَّا نُمَدِّدُ » أى كل واحد من الفريقين . وقوله : « هَآؤُلَآءِ وَهَآؤُلَآءِ » بدل من (كلا) « مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد المات ، وتفرق بهما بعد الورود المصادر . ففريقٌ مريدى العاجلة ، إلى جهنم مصدرهم . وفريقٌ مريدى الآخرة ، إلى الجنة مأبهم « وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنع من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكاً فى عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك ، مخذولاً من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)^(١) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر امرأ مقتوعابه «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»
أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا . قال القاشانى : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيرا ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنى عن ذلك . فأثم الواجبات بعد التوحيد ، إذا ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرهما مالا يخفى . و (إِمَّا) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و (أَحَدُهُمَا) فاعل (يبلغن) و (كِلاهُمَا) عطف عليه . ومعنى (عِنْدَكَ) هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلاً على ولدهما ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : (أف) فضلاً عما يزيد عليه . أفاده الزمخشري .

وقوله (وَلَا تَنْهَرُهُمَا) أى تزجرهما عما لا يعجبك ، بغلظة (وَقُلْ لَهُمَا) بدل التأنيف والنهر (قَوْلًا كَرِيمًا) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ) تذللْ لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبهها مضمرًا ، وأثبت له الجناح تخميلاً ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفراده للتربية . أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناح العسكر) وخفضه مجاز . كما يقال (لئن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان . لأنه صفة مبيّنة . أى جناحك الذليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلاً لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و (مِنْ) من قوله تعالى (مِنْ الرِّحْمَةِ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقار المرء إلى من كان مفقرًا له ، غاية في الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجي :

يا من أتى يسأل عن فاقتي ، ما حال من يسأل من سائله ؟

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطف عليّ في صغري ، فرحماني وربّاني صغيراً حتى استقلت بنفسي ، واستغنيت عنهما . قال الزمخشري : أى لا تكثف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها ، وأدعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليّ في صغرك وتربيتكما لك . والكاف للتعليل . أى لأجل تربيتكما لي .

قال الطيبي : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله ^(١) (مِثْلَ مَا أَنْتَ كُنْتَ تَنْطِقُونَ) . وهو وجه حسن .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٣] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه في أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية الماثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما ، جملة ضممتها لكتابي (الأوراد الماثورة) . لا أزال أدعو لها بها في السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا)

[٢٦] (وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا)

[٢٧] (إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ » أى ضماؤكم من قصد البر إلى الوالدين والعقود « إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ » أى قاصدين للصالح والبر دون العقوق « فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ » أى التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا » أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضر البر . والوعيد لمن أضر الكراهة والاستئقال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبذر بوادر ؟ فتيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة ، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز - كما قال الزمخشري - أن يكون هذا عامًّا لكل من فرط منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجاني على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أى من صلته وحسن المعاشرة ، والبرّ له بالإتفاق عليه .

قال المہامی : لم یقل (القرب) لأن المطلق ینصرف إلى الكامل . والإضافة ، لما كانت لأذن الملازمة ، صدق (ذو القربی) على کل من له قرابة ما . « وَالْمُسْكِينِ » أى الفقير من الأبعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَأَبْنِ السَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ویدخل فيه ما یمطاه من حمولة أو معونة أو ضیافة . فإن ذلك کله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإتفاق فى محرم أو مکروه ، أو على من لا یستحق ، فتحسبه إحساناً إلى نفسک أو غیرک . أفاده المہامی . وفى (الکشاف) : كانت الجاهلیة تنجر إبلها وتتیاسر علیها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوهها ، مما یقرب منه ویزلف .

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » أى أمثالهم فى کفران نعمة المال بصرفه فیما لا ینبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشتر من الشیطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما یطیع الصدیق صدیقه والتابع متبوعه ، أو هم قرنائهم فى النار على سبیل الوعيد . والجملة تعلیل المنهى عنه عن التبذیر ، ببيان أنه یجعل صاحبه مقروناً معهم . وقوله « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » من تنمة التعلیل . قال أبو السعود : أى مبالغاً فى کفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن ینصرف جمیع ما أعطاه الله تعالى من القوى ، إلى غیر ما خلقت له من أنواع المعاصی ، والإفساد فى الأرض ، وإضلال الناس ، وحملهم على الکفر بالله وکفران نعمه الفائضة علیهم ، وصرفها إلى غیر ما أمر الله تعالى به . وتخصیص هذا الوصف بالذكر ، من بین سائر أوصافه القبیحة ، للإیذان بأن التبذیر ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غیر مصرفها ، من باب الکفران ، المقابل للشکر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هی له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بکمال عتوّه . فإن

كفران نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله في سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا)

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا »

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الرد ، لا تنتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولا ليناً سهلاً ، وعدهم وعداً جميلاً .

قال في (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض

لأجل السعى لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى

منه . وفسره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهائمي إلى أن الآية في منعهم خوفاً

من أن يصرفوه فيما لا ينبغي . قال : أى وإن تحقق إعراضك عن تريد الإحسان إليهم ،

طلب رحمة من ربك في المنع عنهم لئلا يقيموا في التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر

أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم في الدفع قولا سهلاً عليهم ، إحساناً إليهم بدل

العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والنظم الكريم يحتمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاعتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُومًا » يلومك الفقراء والقراة « مَحْسُورًا » أى نادماً ، من (الحسرة) . أو منقطعاً بك لاشئ عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلوله لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) من باب اللف والنشر المرتب . قال : أى فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغنون عنك كما قال زهير ^(١) فى المعلقة .
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ فَيُبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَغْنَوْا عَنْهُ وَيُذْمَمُوا

(١) الرواية فى (المعلقات) و (شرح ديوان زهير) هكذا :

* وَمَنْ يَكْ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَلْ بِفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية (من شرح الديوان) : وفى شرح الأعمى :

* وَمَنْ يَكْ ذَا مَالٍ فَيُبْخَلْ بِمَالِهِ *

وهو البيت المحسون من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أَوْفَى دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةٍ الدَّرَاجِ فَلْتَشَامِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلائىء تنفقه ، فتكون كالحسير . وهى الدابة التى عجزت عن السير ، فوقفت ضعفاً وعجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع ويضيِّقه ، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أى خبيراً بيوطنهم ، بصيراً بطواهرهم . قال المہامی: ولما وجب إتياء ذى القربى والمسكين وابن السبيل، لحفظ أرواحهم، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهى لهم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من قتلهم أولادهم . وهو وأدهم بناتهم . أى دفنهن فى الحياة . كانوا يثدونهن خشية الفاقة وهى الإملاق والفقر ، بالإئناق عليهم إذا كبروا . فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ) أى نحن المختصون بإعطاء رزقهم فى الصغر والكبر ، وقوله تعالى (وَإِيَّاكُمْ) أى الآن بإغنائكم . وقوله تعالى « إِنْ قَتَلْتُمْ » أى للإملاق الحاضر والخشية فى المستقبل « كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » أى لإفضائه إلى تخريب العالم . وأى خطأ أكبر من ذلك .

تنبيه :

دل قوله تعالى (حَشِیَّةٌ اِمْلَقِ) على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف العار كما زعموا . قال اللبرّدی (الكامل) : كانت العرب في الجاهلية تشد البنات . ولم يكن هذا في جميعها . إنما كان في تميم بن مرّ ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات ، فقال (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِیَّةٌ اِمْلَقِ) وقال (٢) (وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ) فهذا خبر بين أن ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن تميمًا منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المفذر ، فاستاق النعم وسبي الذراري . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقية . فأتاب القوم وسألوه النساء . فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباهما ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه . فكلهن اختار أباهما إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج . فندّر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها . فهذا شيء يعتلّ به من وأد ، ويقول : فملناه أنفة ، وقد أ كذب ذلك بما أنزل الله تعالى في القرآن .

وقال ابن عباس رحمه الله (في تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطأ كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى ، إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً » أى فعلة قبيحة متناهية في القبح . توجب

(١) [٦٠ / المتجنّنة / ١٢] .

النفرة عن صاحبه ، والتفرقة بين الناس « وَسَاءَ سَبِيلًا » أى بئس طريقا طريقه . فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايئى : (سَاءَ سَبِيلًا) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التفتير والتفرقة ، فقال تعالى مجده :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُوَ كَانَ مَنصُورًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها وهى نفس الإنسان « إِلَّا بِالْحَقِّ »

أى إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ (لا تقتلوا) أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله .

وجوز تعلقه بـ (حرّم) . أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقق أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام ، أو زنى

بعد إحصان ، أو قوداً بنفس « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي

الْقَتْلِ إِنَّهُوَ كَانَ مَنصُورًا » أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لوليّه ، الذى

بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . (سُلْطَانًا) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه .

أو حجة يثب بها عليه ، وحيث أن فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين

والقاتل واحد ، كمادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : (إِنَّهُوَ

كَانَ مَنصُورًا) تعليل للنهى . والضمير للولى . يعنى : حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له

القصاص ، فلا يسترد على ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ،
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى لاتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتميمه وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن . أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا . والبيوع والأشربة والإيجارات ونحوها « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » أى مطلوبًا . يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته . أو : صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتقدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى اتموه إذا كتم لغيركم ولا تبخسوه « وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوى ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لاتنظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلا ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشري : والمراد النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وإن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولاً ظاهراً ، لأنه اتباع لما لا يعلم صحتته من فساد . انتهى . ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحرير والتحليل . وكشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وما شا كها « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » أى كان صاحبها مَسْئُولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايى : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وآخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لا يخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » أى غتالاً . أى مشية المعجب المتكبر . إذ لا يفيدك قوة ولا علواً ، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك ، كما يفعله المحتال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالاحتال ، وإيدان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية، كفاية في الانزجار عنها. ولقد حفظ الله عوامَّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدَّ طرفاً من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبخر في مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرّون عليها وهم عنها معروضون . وماذا يفيد أن يقرأ القرآن أو يُقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولي التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

[٣٩] (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُسَلَّىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

« كُلُّ ذَلِكَ » أى النهى عنه من قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايى : أما الشرك فلاخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه الخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك . وأما العقوق فلا أنه كفران نعمة الأبوين فى التربية، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذم مكره . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإتلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد مغلّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق . وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحدهم خواصه شيئاً . « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايى : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُسَلَّىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا »

ءَاخِرَ « كرهه للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها .
وَمَنْ عَدِمَهُ لَمْ يَنْفَعِهِ عُلُومُهُ وَحِكْمُهُ .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراف أَوْلَا حيث قيل (فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا
مَّخْذُولًا) ورتب عليه ههنا نتيجه في العقبي فقيل « فَتَقْلُقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا » أى بالجهل
العظيم « مَذْخُورًا » أى مبعدا مطروداً من الرحمة . وفي إيراد الإلقاء ، مبنياً للمفعول ، جرى
على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعل له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ،
فيطرحها في التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)

« أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ
قَوْلًا عَظِيمًا » .

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب (الملائكة بنات الله) . والهمزة للإنكار . قال
الزمخشري : والمعنى : أنخصكم ربكم ، على وجه الخلوص والصفاء ، بأفضل الأولاد وهم الذكور ،
ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ،
بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد
لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أدونها وأدونها للسادات . وقوله
تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) أى بإضافة الأولاد إليه ، وهى خاصة المحدثات . ثم
بإشاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) [٤٢] (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ۚ إِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبيننا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ۚ إِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره ، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليهم وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويتغنون الزلفى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه . ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه . وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانى تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى (لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) أى لطلبوا إليه سبيلاً بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى^(١) : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ۚ إِلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وهذا الوجه قدمه الزمخشري على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٤٤] (تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

« سُبْحَنَهُ وَ » فإنه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم ، من حيث لا يحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون . بل هو أمر يعتقده رأساً . انتهى . ومعنى (سُبْحَنَهُ وَ) أى تنزهه عن الولد والشريك تنزهاً حقيقياً به « وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعاضل عن ذلك تعاضلاً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب: وذكرُ العلوِّ ، بعد عنوانه بـ (ذى العرش) ، فى أعلى مراتب البلاغة . وقوله تعالى : « تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى تنزه الله ، وتقدسه وتجلُّه السموات والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون . وتشهد جميعها بالوحدانية فى إلهيته وربوبيته ، كما قال (١) (تَسْكَاذُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام والحصاء ، ممَّا خرج فى الصحيحين والمسانيد ، مما هو مشهور .

واختاره الراغب في (مفرداته) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ودلالة قوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من في السموات ويسجد له من في الأرض) لأن هذا من نفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازي ، على طريقة الاستعارة التثيلية أو التبعية . كـ (منطقت الحال) . فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزّه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
قالوا : والخطاب في قوله تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) للمشركين . أى لإخلاقكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ في رد القول الأول واختصار الثانى ، الإمام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب . قال رحمه الله في الرد على من قال : (إن في البهائم رسلاً) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى ^(١) (يَسْأُولِ الْأَلْبَبُ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق - الذى هو التصرف في العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، والتصرف في الصناعات على اختلافها - الإنسان خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجّمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلاً لكلماته ، ما لم يأت نص في أحدها ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حملة على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذباً عليه وعلى نبيه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنس والجن والملائكة) . لا نطق له . نعى أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهدًا بالحس معلوماً بالضرورة ، لا ينكره إلا وقح مكابر لحسه ، وبينّا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزاً . وكان هذا أيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة - فوجب أنه بخلاف ما يسمى في الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجوداً . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبراً أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذي به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والحشرات والألوان لا تقول (سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذا لا شك في هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذي ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذا لا شك في هذا فإن التسبيح في أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذا قد صح هذا ، فإن كل شيء في العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذي هو صفة الحدوث . وليس في العالم شيء إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لا يشبهه) على أن الله تعالى منزّه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَیُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهريّ شيء لا يشك في أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهاً لشيء مما خلق . وهذا يقين لا شك فيه .
فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هي من الأسماء المشتركة ، وهي التي تقع على نوعين فصاعداً . انتهى كلامه .

ومحصله نفي أن يكون للجهادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود في الإنسان . وهو حق لاشبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفي أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه . فيرجع الخلاف لفظياً . وقد وافق العلم الحديث الآن - كما قاله بعض الفضلاء - على أن في الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التي تميز الأحياء . وأن ما فيه في الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هي عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة في جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة ، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيميائية مختلفة . وبالجملّة ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء في ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُ وَكَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم في النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش : إن (مفعولاً) يرد بمعنى (فاعل) كيمون ومشثوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلاً) يرد بمعنى (مفعول) كإاء دافق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا)

« وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع (كنان) « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى كراهة أن يفقهوه « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى صممًا يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم . وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ، ومجّ اسماعهم له ، جىء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان القال ، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال . وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه ، إلا لما نع قوَى يعترى المشاعر فيبطلها . تنبيهها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ وَخَدَهُ » أى غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم « وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا » أى هرباً من استماع التوحيد . قال القاشانى : لَتَشَتَّتْ أهوائهم ، وتفرق همهم في عبادة متعبداتهم ، من أصنام الجسمانيات والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون ، رؤساء قريش ، بقوله متوعدا لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مَجْوَىٰ

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)

[٤٨] (أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مَجْوَىٰ » إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا « أى سحير ، فجنّ فاختلط كلامه « أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » أى مثلك بالشاعر والساحر والمجنون « فَضَلُّوا » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد . كالتحجير في أمره لا يدري ماذا يصنع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَاتًا آءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

[٥٠] (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

[٥١] (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ،

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)

[٥٢] (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَاتًا » وهو ما بلى وتفتت « آءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا *

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » أى يعظم في نفوسكم

عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه . فإنه يحْيِيكم ولا يعجزه بعثكم . فكيف ،

إذا كنتم عظاماً مرفوثة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشئ أقبل لما عهد فيه مما لم

يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاء

« وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضي : استعار لها الدعاء

والاستجابة ، للتنبيه على سرعتها وتيسر أمرها . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة

والجزاء . انتهى .

وقيل : إنهما حقيقة كما في آية^(١) (يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) وفي قوله

(١) [٥٠ / ق / ٤١] .

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) وجوه للمعربين . ككونه بدلاً من (قريباً) على أنه ظرف . أو منصوب بـ (يكون) أو بمقدر (اذكر) أو (تبعثون) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبثكم فى القبور والمضاجع . لنهولكم عن ذلك الزمان . أو فى الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا)

[٥٤] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« وَقُلْ لِّلْعِبَادِ » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقرب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُوا » فى النصيحة ، الكلمة « الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى فلا يخاشنوا أحدا ولا يغلظوا بالقول « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والمراء ، لتقع بينهم المضاربة « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا » وقوله تعالى « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنميوا إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولاً إليك إليك أمرهم . تقصرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالاتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شئ فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفى لرسالته ، ويختار لنبوته ، ويعلمه أهلاً لها . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن في السموات والأرض وأحوالهم . فأتى موسى التوراة وكله ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد أتى محمد القرآن فضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى « وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ، فضلناه به . قيل : الآية رد عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبياً ، دون من يعدونه عظيماً بينهم في الغنى والجاه . وذكر من في السموات لإبطال قولهم ^(١) (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ) وذكر من في الأرض رد قولهم ^(٢) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ) . وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبي ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من ^(٣) (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما يبلغ في الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره . وإذا كان ذلك اختصاصاً ربانياً ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، من علم أنه أرجحهم عقلاً ، وأكملهم فضلاً ، لحتم نبوته ، وهداية بريته ، بمنهاجه وشرعته . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله من خلقه ، ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرّون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لا يقدرّون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبرى^(١) عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبیده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال . ونظير هذه الآية فى النهى عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء ، قوله سبحانه^(٢) (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيَ يُبَيِّنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وفي قوله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : (مَحْذُورًا) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياداً بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حتم وقضى ؛ أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم ، كما قال تعالى ^(١) : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وقال تعالى ^(٢) (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى ^(٣) (وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَإِتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ » أى التى يقترحها قريش : « إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

(١) [١١ / هود / ١٠١] . (٢) [٦٥ / الطلاق / ٩] . (٣) [٦٥ / الطلاق / ٨] .

أَلَاؤُونَ « أَى إِلَّا تَكْذِيبِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَالُهُمْ . كَعَادُ وَثَمُودُ . وَأَنهَا لَوْ أَرْسَلْتُ لِكَذِبُوا بِهَا تَكْذِيبَ أَوَّلِكَ . فَاسْتَوْجِبُوا الْاسْتِثْصَالَ . عَلَى مَا مَضَتْ بِهِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ . وَقَدْ قَضَيْنَا أَن لَا نَسْتَأْصِلَهُمْ ، لِأَن مِّنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ أَوْ يَلِدُ مِّنْ يُؤْمِنُ . ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضُ الْأُمَمِ الْمَهْلَكَةَ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةِ ، فَقَالَ : « وَءَاتَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ » أَى أَعْطَيْنَا قَوْمَ صَالِحِ النَّاقَةِ بِسُؤَالِهِمْ « مُبْصِرَةً » أَى بَيِّنَةً ، تَبْصُرُ الْغَيْرَ بِرَهَانِهَا « فَظَلَمُوا بِهَا » أَى فَكَفَرُوا بِهَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ عَقْرِهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ « وَمَا نُرْسِلُ بِأَلَايَتٍ إِلَّا تَخَوِّفًا » أَى وَمَا نُرْسِلُ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةِ إِلَّا تَخَوِّفًا لِلنَّاسِ ، لِيَعْلَمُوا السَّنَةَ الْإِلَهِيَّةَ مَعَ الْعَاتِينَ ، فَيَتَذَكَّرُوا وَيَتُوبُوا .

روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن يأتهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما هلك من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأني بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ... » . الآية . ورواه النسائي .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » أَى عِلْمَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِّنْ كَفَرِهِمْ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) .

وتكذيبهم . ومنه ما جرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة ، من الجحود والهزء واللغو . كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعني ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات . فلما ذكرها النبي ﷺ للناس ، أنكر بعضهم ذلك وكذبوا . وجعل الله ذلك ثباتاً وقيناً للمخلصين . فكانت فتنة ، أى اختباراً وامتحاناً . وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناماً ، ليكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى (إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يردّه . لأن رؤيا المنام لا يفتن بها أحد ولا يكذب . وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقى لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً . وقد ذكر السهيلي : أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة . وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارية على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلاً . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبرى^(١) عن الحسن في الآية هذه : قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاء إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يا محمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا نخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فمجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم^(٢) : الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البرى عن ابن عباس . قال : يقال : إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه . وهو يومئذ بالمدينة . فمجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة . قبل الأجل : فردّه المشركون . فقالت أناس : قد رُدَّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها . فكانت رجعتهم فنتهم . وذلك عام الحديبية . ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ، لأنه كان إذ ذاك بمكة . فلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما في (الإتقان). والطبري رجح الأول وفقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية في كذا)، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَالشَّجَرَةَ الْمَكْمُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ» عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة في سورة الصافات في قوله تعالى^(١) (أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ...) الآيات ، وفتنهم فيها مارواه الطبري^(٢) عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا - يعني النبي صلوات الله عليه أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفي رواية ؛ أن أبا جهل قال : أئخوفني بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : ترقوا ، فإنا تعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلمعنها في القرآن ، لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز في الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذي لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى «وَنُخَوِّفُهُمْ» أي بذلك وبنظائره من الآيات «فَمَا يَزِيدُهُمْ» أي التخويف «إِلَّا لَطْمَعَيْنَا كَبِيرًا» أي تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

(١) [٣٧ / الصافات / ٦٢-٦٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال المهيبي : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجلّ من أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة في إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيوى . لكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان . وأنه وحزبه ، لغوهم وتمردهم عن الحق ، في النار ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)

[٦٢] (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَاخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُوَ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» أى تحية وتكريماً «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» كما قال في الآية الأخرى^(١) (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) «قَالَ» أى جراءة على الرب وكفراً به «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىّ بأن أمرتنى بالسجود له، لم كرمته علىّ؟ أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته علىّ «لَنْ أَخَّرَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَاخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُوَ إِلَّا قَلِيلًا» أى لأعمنهم وأهلكتهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)
 [٦٤] (وَأُسْتَفْزِرُ مَنْ أُسْتَفْزِرَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

[٦٥] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)
 « قَالَ أَذْهَبَ » أى امض لشأنك الذى اخترته « فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا » أى جزاء مكملًا « وَأُسْتَفْزِرُ » أى استخف وأزعج « مَنْ أُسْتَفْزِرَ مِنْهُمْ » أى أن تستفزهم فتخدعه « بِصَوْتِكَ » أى بدعائك إلى الفساد . وعبر عن الدعاء بالصوت تحقيرًا له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ » أى صح عليهم . من الجلبة (بفتحات) وهى الصياح . و (الخيل) الخيالة أى ركب الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرجل) اسم جمع للرجال وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلاجه بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثلت حاله فى تسلطه على من يعويه ، بمغوار - بكسر الميم ، الكثير الغارة وهى الحرب والنهب - أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أمانتهم ، ويقلقههم عن مراكزهم . وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم - أى فالكلام استمارة تمثيلية مركبة . استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيرهم لهم . وجوز أن يكون التجوز فى المفردات تجوزاً بصوته عن دعائه إلى الشر بالسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ » أى بحمله إياهم على إنفاقها فى المعاصى وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى « وَالْأَوْلَادِ » أى بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ، وَوَأَدْبِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدَّتُهُمْ » أى المواعيد الباطلة والأمانى الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزوين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِي » أى المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أى كفيلاً لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون فى أمورهم إلا إليه ، وهو كافهم .

وقد أشار القاشانى إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف . وعبارته : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أى استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولة . ومن كان قوى الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية ، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وإلا فإن كان منغمساً فى الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه فى الأمور الدنيوية ، شاركه فى أمواله وأولاده ، بأن يحرّضه على إشراكهم بالله فى المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم ، والتسكّاث والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانى الكاذبة . ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينفمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته ، أجب عليه بخيله ورجله . أى مكره بأنواع الحيل . وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش . وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكاً ، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى . ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّكُمْ الَّذِى يُرْجِى لَكُمْ أَفْلَكَ فِى الْبَحْرِ لِيَبْتَلِىَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ،
إِنَّهُوَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَبُّكُمْ الَّذِى يُرْجِى لَكُمْ أَفْلَكَ فِى الْبَحْرِ » أى يُسَيِّرْ لَكُمْ السفن فى البحر
« لِيَبْتَلِىَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » أى من رزقه . والآية صريحة فى ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُوَ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكىر لبعض النعم التى هى من دلائل التوحيد ، وتمهيد لذكر
توحيدهم عند مساس الضر ، تسكلة لما مرّ من قوله (فَلَا يَمْلِكُونَ ...) الآية ، وذلك
قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »
أى ذهب عن أوهامكم وخواطيركم كل من تدعونه وتعبدونه ، إِلَّا إِيَّاهُ وحده . فإنكم
لاتذكرون سواه . فطرةً فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدلل لكثير من
الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوه ،
والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ » أى من الغرق : « إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ »
أى عن التوحيد : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » أى بأنهم الله . والجملة كالتعليل للإعراض .
قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة ،
بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)
« أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ » أى يغوره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصاء يرجمكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق : « ثُمَّ
لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ
فِيهِ » أى يقوى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ » أى ريحاً شديدة لاتمر بشيء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا » أى مطالباً بما فعلنا . مثل من يطالب
على مغرق سوانا . وهذا كقوله^(١) : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » أى بالنطق والتميز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على
ما فى الأرض والتمتع به « وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها « وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » أى عظيمًا .
فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده .

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه . قيل وهم الذوات المقدسة من الملائ الأعلى ، أعنى الملائكة .

قال القاشانى : وأما أفضلية بعض الناس ، كالأنبياء على الملائكة المقربين ، فليست من جهة كونهم بنى آدم . بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله ^(١) : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة . وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل ^(٢) :

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهدٌ بأبوتى
وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) (بالكل) كما أول (القليل) بمعنى (العدم) فى قوله تعالى ^(٣) : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْفَاقِرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا .
أى جميع المخلوقات .

قال القاشانى : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة فى تعظيمه ، بوصف المتفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف . أى كثير وأى كثير ، وهو جميع

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٢) فائله عمر بن الفارض من تأييده الكبرى المسماة بنظم السلوك . ومطلعها :

سَقَتْنِي حُمِيًّا الْحَبَّ رَاحَةً مُقَلَّتِي وَكَأْسِي حُمِيًّا مَنْ عَنِ الْحَسَنِ جَلَّتْ

(٣) [٢ / البقرة / ٨٨] .

مخلوقاتنا . لدلالة (مَنْ) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة في كتب الكلام . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ، فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَ يَمِينِهِ
فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا)
[٧٢] (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين . فيقال : يا أتباع فلان ! يا أهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم . فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ! يا أصحاب كتاب الشر ! قالوا : وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبي ﷺ .

وقال القاشاني : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبي آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه ، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلى محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير ، رحمه الله ، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ، لقوله تعالى ^(١) (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) وقال تعالى ^(٢) (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ ..) الآية ، وقال تعالى ^(٣) (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْنِسُخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(١) [٣٦/يس / ١٢] . (٢) [١٨/الكهف / ٤٩] ، (٣) [٤٥/ الجاثية ٢٨ ، ٢٩] .

وما رجع به رحمه الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغي الاهتمام به في معاني الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوْتِيَ » أى من هؤلاء المدعوين « كِتَابَهُ وَ » أى كتاب أعماله « بِبَيِّنَاتٍ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ » أى فرحاً وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما في شق النواة ، أو ما تقتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء . فإن الفتيل مثل في القلة ، كقوله تعالى ^(١) (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

« وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا » أى ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلاً منه في الدنيا . لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو في مقام الكسب باقى الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات ، لفساد حاسته . مجاز في عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثانى أفعّل تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعّل تفضيل كالأحق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقروءه . ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ، ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك ، غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا)

[٧٤] (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئِنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

«وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا*» وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئِنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيتته وعصمته وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره . وقد روى أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب : لانحنى في الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فإن خشيت أن يسمع العرب (لِمَ أُعْطِيَتْهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا) ؟ فقل : الله أمرني بذلك . وروى أن قريشاً قالوا : لاندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبري : يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر . وأن تكون غير ذلك . ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له ، ببيان ما عني بذلك منه .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك . ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك . ويصرفوك عن القرآن أي عن حكمه . وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : (لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) أي غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك

(وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلًا ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) أى على الحق بمصمتنا إياك (لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْهُمْ) أى تميل إليهم (شَيْئًا قَلِيلًا) وقوله (شَيْئًا) عبارة عن المصدر ، أى ركونا قليلا .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تسكنني إلى نفسى طرفة عين) . ثم توعده فى ذلك أشد التوعد ، فقال :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)
« إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ » أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله ، ودل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف فى كثير من الآيات . كقوله تعالى ^(١) (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) وقال ^(٢) (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .
والسبب فى تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم . فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر . ونظيره قوله تعالى ^(٣) (يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله (بعد ذكره ما روى فى سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرُونَ عليه . فقارة كانوا يقولون :

(١) [٣٨ / ص ٦١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] .

إِنْ عِبَدْتَ آلِهَتَنَا عَبْدَنَا إِلَهَكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ^(١) : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله ^(٢) : (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ^(٣) (وَلَا تَعْمَدَنَّ عَيْنِيكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قوله ^(٤) : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبت على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة في تفسير هذه الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثاني : قال القاضي : معنى قوله تعالى : (وَلَوْ لَا أَنْ مَّيْتَنَكَ . . .) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتياهم . لكن أدركتك عصمتنا فنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم . وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشري : في ذكر السكيدة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها . فهي جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله .

الرابع : جاء في (حواشي جامع البيان) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجميلة في هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك ، بعد القدرة على هدمها وإبطالها ، يوماً . فإنها شمائر

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢] . (٢) [٦٨ / القلم / ٩] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٤) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

الكفر والشرك . وهى أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبد من دون الله . والأحجار التى تقصد للمعظيم والتبرك والندور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلتهم السوق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم بالللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه ، من النذور لها والشرك بها والتسحبها وتقبيلها واستلامها . وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مس آلتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلتنا . وما التمسوا منه إلا التمتع بالللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزقة كل الرزقة ما بتلى به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإننا لله وإننا إليه راجعون . بل كثير منهم ، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه ، حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك . أو بمعتدك الولي الفلاني تلسكاً وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أى رزء للإسلام أشد من الكفر ؟ وأى بلاء لهذا الدين أضرب عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٧٧] (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)

« وَإِنْ كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بمعاداتهم من مكة « لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ » أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زماناً قليلاً « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنَّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبسهم ، إهلاكمهم . سواء كان بالاستئصال ، أو لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه بيدى على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرفهم وسبى سرائهم . ولهذا قال تعالى (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسولنا وآذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى (١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقوله تعالى :

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبل ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهاال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأنيده عليهم . ونظيره قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ) وقوله (٢) (فَأُصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ أَثَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وقوله (٣) (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ اللَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْءَانَ الْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآنا لأنه ركنها . كما سميت ركوعا وسجودا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحا ، وفي غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودا بالجماعة الكثيرة . والأكثر على أن قوله تعالى (وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] .

منصوب بالعطف على (الصلاة) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوز بعض النحاة نصبه على الإغراء . أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية جامعة للصلوات الخمس وموافقتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناوولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناوولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركاً بين الظهر والعصر . والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء . فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين ، وكذا بين الآخرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما في غيرها فلا . وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن ساف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه . وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى .

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس . جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله : وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . ما لم يتخذ عادة . واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان^(١) وغيرها عن ابن عباس قال: صلى النبي ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثاني : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس ، ومنها قوله تعالى^(٢) : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر في النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر . والوتر تصلى بالليل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) : صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة . وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا في هذا الموضوع ، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، وبراد به من طلوع الشمس . لكن قوله (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة في أول الطلوع منهي عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أولاً تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثاني

(١) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ - باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .
(٢) [١١ / هود / ١١٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٠ - باب كيف كان صلاة النبي ﷺ ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعنا) .

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة في هذا الوقت صلاة في الطرف الثاني وأشرك بينهما فيه . ثم قال (وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فأجل المغرب والعشاء في (زلف من الليل) . وهي ساعات من الليل . فالواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى (١) (لَيْسْتَ تَذُنُّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء . فمن الظهيرة إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على الواقيت في آيات أخر كقوله تعالى (٢) (فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فتبين أن له التسبيح والحمد في السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر، والعشي يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى (٣) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) وفي الآية الأخرى (٤) : (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ) فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر . وقبل غروبها هي العصر . وبذلك فسرهما النبي ﷺ في الحديث (٥) المتفق على صحته عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال :

(١) [٢٤ / النور / ٥٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٧ و ١٨] . (٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٤) [٥٠ / ق / ٣٩ و ٤٠] . (٥) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ،

١٦ - باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) . وقوله تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ) (وَمِنَ الْبُقَايَةِ الْمُبْتَلَى) مطلق في آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقي الدين ابن تيمية في فتواه في (المواقيت الكرى) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التي أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية . عليه الرحمة ، في فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعذر . فالوقت في حال الرفاهية خمسة أوقات كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثله . ووقت العصر ما لم تصفر الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبي هريرة في السنن . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في المواقيت حديث من قوله إلا هذا . وسائر ما روى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما في هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء في آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجاهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله . سوى النوى الذي زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبي حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً للظهور ولا

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ (طبعنا) .

للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثاني منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر في إحدى الروايتين عن أحمد . وهو منقول عن مالك والشافعي مع خلاف في مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو^(١) ، مما عمل به النبي ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبي يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذي تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبي ﷺ ، لا صحيح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذي أوله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهي ثلاثة: من الزوال إلى الغروب . ومن الغروب إلى الفجر . ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدهما تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبي ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها في سفرة تبوك . إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب في المطر . فهذا جمع تقديم . والثاني جمع تأخير ، العصر فيها إلى الغروب . لقوله ﷺ في الحديث الصحيح :^(٢) من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر . ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ - باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبي هريرة) . وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥ (طبعتمنا) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر . مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح^(١) :
 (وقت العصر ما لم تصفر الشمس) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان
 التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ في أشهر قولي العلماء بقوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى
 الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعي ، وأحمد في أشهر الروايتين عنه .
 وقيل : بخير حال القتال في التأخير والصلاة في الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى
 عنه . وقيل : بل يؤخرها . وهو قول أبي حنيفة أيضاً . ففي الحديث الصحيح^(٢) عنه ﷺ أنه
 قال (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت
 بين قرني الشيطان ، قام فنفق أربعاً ، لا يذكّر الله فيها إلا قليلاً) فوصف صلاة المنافق بالتأخير
 إلى حين الغروب والمقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن
 الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس
 له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله . بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك .
 كالحائض إذا طهرت . والمجنون يفيق . والنائم يستيقظ . والناسي يذكر . ودل تقديم العصر
 يوم عرفة على أنها تفعل في موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هذا الحديث على أنها
 يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بين بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل
 كل شيء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ،
 وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من
 الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (في الحائض إذا
 طهرت قبل غروب الشمس) : تصلي الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٨] . (٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع

الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابيٍّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعيّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثاني عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن - يعني الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل - والذين ينازعون الجمهور في الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر في قوله ^(١) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبي ﷺ لم يصل قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحدهم المعروفين يُعرف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق في الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق في آناء الليل وفي غسق الليل . ومطلق في الطرف الأول وفي الطرف الثاني ، فدل على جواز الصلاة في هذا وهذا ، لو قُدِّر أن النبي ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما في الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى ^(٢) (أَرْ كُفُّوا وَاَسْجُدُوا) مطلق . فهو الفرض . والطمأنينة إنما جاء بها خبرٌ واحدٌ . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون في الفاتحة : إن القرآن مطلق في إيجاب قراءة ماتيسر منه ، مع أن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلوا إلا بالفاتحة . ومع قوله : (لا صلاة إلا بآتم القرآن) ^(٣) . و (إن كل صلاة لم يقرأ فيها

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٤] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام

والمأموم في الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ (عن عُبادة بن الصامت) .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعنا) .

بأَمِّ القرآن فهي خداج . فهي خداج . فهي خداج ^(١) . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبرٌ واحدٌ فلا يقيّد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق في الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبي ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع في الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذي هو من أخبار الآحاد . مع ما فيه من الإجمال ، كقوله ^(٢) : لَمَّا بَيْنَ الْمَوَاقِيتِ الْخَمْسَةِ (الوقت ما بين هذين) وقوله ^(٣) (ما بين هذين وقت) دلالاته على وجوب الصلاة في هذا الوقت دون دلالة قوله : (لا صلاة إلا بأَمِّ الكتاب) وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأَمِّ الكتاب فهي خداج) وكذلك قوله ^(٤) ﷺ في الحديث الصحيح (سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها . ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها في الوقت عند الرافعية بقوله ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذي بيّنه لهم . والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن الأمراء ، أتقاتلهم ؟ قال : (لا . ما صلوا) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتقويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما في الوقت المشترك فهو ثابت بالسنة في مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبين أن الوقت المشترك وقت في حال العذر . كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ (طبعنا) .

عن أبي موسى . (٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧

(طبعنا) عن بُرَيْدة . (٤) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ،

حديث رقم ٢٣٩ (طبعنا) عن أبي ذرّ .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز . وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت في آخر النهار) : إنها تصلى الظهر والعصر . (وفيمن طهرت في آخر الليل) : إنها تصلى المغرب والعشاء . وهو قول الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت في بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع ، فقد جمع في قوله بين أصلين ضعيفين : بين إباحة ما حرمه الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتفويت العشاء إلى النصف الثاني أيضاً ، لا يجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء في وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لا يجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصليها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » أمر له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفي « مِنْ » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثاني أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) . أى قم من الليل أى في بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك المجود وهو النوم ، (تقبل) يأتى للسلب كـ (تأثم وتخرج) ، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهري : المعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما التهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه المجود عن نفسه . كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلاً . وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير في (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (في) أي تهجد في ذلك البعض . وقوله تعالى (نَافِلَةً لَّكَ) أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشري : وضع (نافلة) موضع (تهجد) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقديم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » أي يحمد القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ، للفصل بين الخلائق الذي يحمد فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة^(١) . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير^(٢) ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدى على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته - على ما نقلها الرازي -

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٧ - سورة الإسراء ، حديث رقم

٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه:
الأول أن البعث ضد الإجماس ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث
 الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجماس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .
الثانى أنه تعالى قال (مَقَامًا مَّحْمُودًا) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع
 القعود .

الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ،
 لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .

الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال
 والحقى يقولون (فى كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى
 يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل
 المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس أنه إذا قيل : السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهامهم .
 ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا إنسان
 قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدى .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير^(١) حتى يمسك من جراح براءه ويبصر الأدب مع السلف
 مع الخارج العلمية لهم . وهالك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم):
 وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة - ثم
 قال - وهذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من
 الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمد أصلى الله
 عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحته . لامن جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولعن أحد من أصحابه ، ولعن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم : الله عز وجل وجل بائن من خلقه ، كان قبل خلقه الأشياء ، ثم خلق الأشياء فلم يماسها ، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التي خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماساً ، وجب أن يكون لها مباينا . إذ لا فعال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها ، قالوا : فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجوز في قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين - فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذا كان من قولهم إن بينوته من عرشه وبينوته من أرضه بمعنى واحد ، في أنه بائن منهما كليهما ، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى : كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا شيء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذا كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، في أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى : كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . ثم أحدث الأشياء وخلقها ، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماساً ، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شيء يرزقه رزقاً ولا شيء يحرمه ذلك . ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا : فكذلك كان قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا يباينه . وخلق الأشياء فاسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه . فهو مماس ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه : فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذا كان من قولهم : أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش ، ولا في إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف - على قول قائل هذه المقالة - بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول في معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذا بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإننا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه ، وإنما ننكر إقعاده معه « حدثني » عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحيى ابن كثير عن الجريري ، عن سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدي الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أجاز عندك أن يُقعد عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعد ، والله للعرش مباين ، أولاً مماساً ولا مباين ، وبأى ذلك قال ، كان منه دخولاً في بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التي حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها . وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضاً عن إرادات الواحدى الخمسة ، التي أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إirاده الأول ، فإن مجاهداً لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك في اللغة . وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتاً لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد في الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف - في الشاهد - لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن الرفوع ذو مقام يفوق به الكل .
وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بحث لإصلاح المهمات في الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبي في كتابه (المو الله العظيم) للإمام الدارقطني في ترجمته ، قوله :

حديث الشفاعة في أحمدٍ إلى أحمد المصطفى نُسِنْدُهُ
وأما حديثٌ بإقعاده على العرش أيضاً فلا نَجَحْدُهُ
أمرُّوا الحديث على وجهٍ ولا تُدخلوا فيه ما يُفسِدُهُ

وقال الذهبي في كتابه المنوه به ، في ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله :
وقال المروزي : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش - ذكر الإمام أحمد بن محمد بن مصعب فقال : قد كتبت عنه . وأى رجل هو ! قال الذهبي : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نص ، بل في الباب حديث وإي . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروزي وقعد بالغ في الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطرق قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبي سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبي يحيى القتات وجابر ابن يزيد . ومن أفتى في ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض ، أبو داود السجستاني صاحب السنن وإبراهيم الحربي وخاتم . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث . وهو عندي رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد في قوله (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا)

قال : يقعده على العرش . فحدث به أبي رحمه الله فقال لم يُقدَّر لي أن أسمع من ابن فضيل :
بحيث إن المروزيّ روى حكايةً بنزول، عن إبراهيم بن عرفة . وسمعت ابن عمير يقول : سمعت أحمد
ابن حنبل يقول : هذا قد تلقتّه العلماء بالقبول . وقال المروزيّ : قال أبو داود السجستانيّ : ثنا
ابن أبي صفوان الثقفيّ . ثنا يحيى بن أبي كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقة ، ثنا الجريريّ .
ثنا سيف السدوسيّ عن عبد الله بن سلام ، قال : إذا كان يوم القيامة جئُ بنبيٍّ - ﷺ - حتى
يجلس بين يدي الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير في تفسيره .
(أعني قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش في تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية
ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلال قال في كتاب (السنة) من
جمعه : أخبرني الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن عليّ السراج ، قال : رأيت النبيّ ﷺ
في النوم فقلت : إن فلاناً الترمذيّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول :
بل يقعدك . فأقبل عليّ شبه الغضب وهو يقول : بلى ، والله ! بلى ، والله ! يقعدني على العرش .
فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدث قال (فيما نقله عنه القاضي
أبو يعلى الفراء) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً ﷺ على العرش ،
واستفتاني ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبيّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلو بهذا المحدث إلى وجوب
الأخذ بآثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة في العلوّ . بل يحاول بعض الطغام أن
يرد . قوله تعالى ^(١) (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلا حسنا مرضيا بلا آفة « وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخرجا حسنا مرضيا من غير آفة الميل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » أى عزًا ناصرا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه .

وقد رأى المهامى ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها . ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتخليتى عن الرياء والعجب ، وتصفيقتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنه لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِي) عنها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) فلا تستعملنى فيما يحبطها على ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت على شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فكبرى ، (سُلْطَانًا) أى حجة (نَصِيرًا) ينصرنى على ما ذكر . ليبقى على عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستره .

« وَقُلْ » أى استبشارًا بقرب الظفر والنصر ، وترهيبًا للمشركين « جَاءَ الْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ الْبَاطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجولته « إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » أى مضمحلًا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات ، مع سباقها أعنى قوله تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ) يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيه بأن يتجهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجرة على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعو ، ومشئئة الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال في (الإكمال) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

ثم بين تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشقى أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أي ونزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعهم . فيدخلهم الجنة وينجيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خساراً . أى إهلاكاً . لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهى ، كفروا به ، فزادهم خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ، ورجساً إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخيلية . بتشبيه الكفر بالمرض . و(من) بيانية . قدمت على المبين وهو (ما) اعتناء .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسية لهذه الآية . بحمل قوله (شِفَاءً) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنويه ، وممن قرر ذلك الرازى . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية . وشفاء أيضاً من الأمراض الجسدية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات فى الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفساد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال الحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية . وأما كونه شفاء من الأمراض الجسدية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطبقات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لا يفهم منها شىء ، آثاراً عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفساد - فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا - كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بحديث^(١) (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى) . وأما كونه رحمة للمؤمنين ، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن ، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتوحيهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعى في تكميل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية ، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه ﷺ ، في حرف القاف : (قرآن) : قال الله تعالى : وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَاهُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (من) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبميز . وقال تعالى^(٢) (يَسَّأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التدأوى به ، ووضع على دأئه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه - لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء ، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فها من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحِمية منه ، لمن رزقه الله فهما في كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال في (حرف المكاف) : ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [١٠ / يونس / ٥٧] .

وذكر ، قبلُ ، في فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا في بحث الرق . وذكر أيضا أن من الأدوية التي تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والاتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرّفها على ما يشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعاينها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاوَناً على دفع الداء وقهره . فكيف ينسکر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقرّبها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره ، وانصرف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانته به ، وتوكلها عليه - أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا في كتاب (إغاثة اللّهفان) في بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبئ مراجعته ، ليزداد المريد علماً .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا »
إشارة إلى السبب فى وقوع هؤلاء الضالين فى أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرّ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافى عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة ، ويشاهد قدرة الله تعالى فى كلتا الحالتين . ويتيقن فى الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفى الثانية ؛ أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن المنعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطراً وأشرًا . ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النعمة جزعاً وضجرًا .

فآلية وصف للجنس باعتبار بعض أفرادهم هو على هذه الصفة . كقوله تعالى (١) :
(وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْسٌ كَفُورٌ * وَإِذْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشري : (وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ) تأكيدٌ للإعراض . لأن الإعراض عن الشيء أن يؤليه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٩ - ١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكْتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)

« قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكْتِهِ ۖ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشا كل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم (طريق ذو شواكل) وهى الطرق التى تتشعب منه لتشا كلها . أى تشابهها فى الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشا كل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيها بحسب أعمالها .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » قال القاشانى : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهر بين البدنيين ، الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالسكون ، لقصور إدراككم وعلمكم عنه « وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم الحسوسات . وذلك شئ نزر حقير بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم - هذا ما قاله القاشانى - وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاختصار في الجواب على قوله : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)^(١) على قوله^(٢) (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إعلماً بأن إدراكه بالكُنْه على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شيء بمفارقة عيوت الإنساف . وبلازمته له يبقى . كما أوماً إليه قوله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالي .

قال الشهاب : والسؤال - على هذا - عن حقيقتها . والجواب إجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما في قوله^(٣) : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هذا المقدار . فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا مثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه^(٤) : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعات الكائنة بمحض الأمر التكويني من غير تحصيل من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فـ (من) بيانية أو تبعية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركاً للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] . (٤) [٣٦ / يس / ٨٢] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة في بحث الروح بدعة في الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما في الآية . فلاشتغال بالتفتيش عنه غلوٌ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون في بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً . إنما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوته ﷺ ، ولأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضربوا على أنه إذا أجب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم نرده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيها من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب في محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملًا على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرمرًا ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصًا على طريقة الحكماء . إذ من غلب على طبعه الجود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري . فكيف يصدق به في حق الروح الإنساني . بل قال بعض المدققين : إن في الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعات الكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة - وهو ما ذكرناه أولاً - وفي الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له في النزاع ، إذا فصل ، مطمع . وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له : فيكون قوله (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) على أن السؤال عن حقيقتها - مطابقاً . إلا أنه إجمالي . أى من الممكنات التي يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقي عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلي . وأياً ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لاسبيل إلى معرفته ل قيل : (قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي) كما قيل في الساعة ، أو نحو ذلك . بل لو لم يكن السبيل لمعرفة ، ولو بوجه ما ، متيسراً لكثير من الناس ، لم يكن لأمره بالتفكير فيها . والتبصر في أمرها ، للاستدلال بها عليه ، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذي هو الغاية القصوى والثمرّة العظمى - من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى (٢) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) وقوله (٣) (وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها ، أثرت عنهم أقوال شتى . وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذي يهمننا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقررة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناها واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسماً ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال (٣) (هُمَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مِّمَّا أَسْلَفَتْ) وقال تعالى (٤) (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) وقال تعالى (٥) (كُلُّ أَمْرٍ إِيمٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فصح أن النفس هي الفاعلة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى (٦) (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال تعالى (٧) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وقال تعالى (٨) (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتُلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٨] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٣) [١٠ / يونس / ٣٠] . (٤) [٤٠ / غافر / ١٧] .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢١] . (٦) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٧) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٨) [٢ / البقرة / ١٥٤] .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) وقال تعالى ^(١) (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَاءِ الْمَتَّهِمِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب . ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة . ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطيور وحيوان الماء . فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان . ولا شك في أن العرض لا يلقى العذاب ولا يحس ، فليست عرضاً . وصح أنها تنقل في الأماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لصفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورة ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ ^(٢) (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة) وقوله ﷺ ^(٣) ، إنه (رأى نسم بني آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرتبة في أماكنها ، وقوله عليه السلام ^(٤) (إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام . ثم قال : ومعنى قول الله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ و ١٧٠] . (٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٢١ (طبعنا) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذي أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ١ - باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ، حديث ٢٣٥ (عن أبي ذر) . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٣١ - باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبي هريرة (طبعنا) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضاً على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، في بحث عذاب القبر : والذي نقول به في مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لانتعدها . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال ^(١) : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهي الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام ^(٣) (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) - وهي العاقلة ، الحساسة - وأخذ عز وجل عهداً وشهادتها - وهي مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها في الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثم) التي توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها في الأجساد المتولدة من المني ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى ^(٤) : (أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١١] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجندة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبي هريرة (طبعنا) . (٤) [٧٥ / القيامة / ٣٧ و ٣٨] .

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) وقال عز وجل^(١): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا) الآية وكذلك أخبر رسول الله ﷺ^(٢) : أنه (يجمع خلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل في الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر، وتمجّل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذي قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في أجسادها ثم يرجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهي الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق في الجنة وفريق في السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال في : (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة . هل هي متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٢ - ١٤] . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب

بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ٩٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه . فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس . والنفس ريح ينبث به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام . وهذا قول الإسفرائيني وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء . وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابهة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابهتها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هي البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم في الملائكة . فالتكلمون منهم يقولون : جسم . والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم . وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات ، هو مأخوذ من نفس الإنسان . فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لمفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم مالا يكون جسماً ولا قائماً بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعاق التدبير . والعقل لا تعلق له بالأجسام أصلاً . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً - لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أو غَلِظُهُ . والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسماً بالمعنى اللغوي ، فإصاب في ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه . وما قيل إنه هذا وهناك . وما قيل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة ، من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه - هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنما تعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تنصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصرف كتدبير الملك لمملكته - من أفسد الكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته ، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتأله ، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والاشتراك ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثل لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل . فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها في البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض . ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلب منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التي هي بعض عبيده ، توصف بأنها تخرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالسكينة . والإنسان ، في نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه . فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالسكينة . وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المتقين عن مباحث المدققين المصريين في الروح ما مثاله : إن نظرية الروحانيين التي يستدلون عليها في أوربا بالحس في هذه الأيام ، هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملاء الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطيني ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسر الإلهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص ، إلى عالم غير هذا العلم . ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة . ولكننا لانراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لذلك . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونيتجن) مع أنها موجود كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعى فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص . به يرون الأرواح راححة غادية ، وعن أيمانهم وعن شمالكهم ، رؤية حقيقية . انتهى . ملخصاً .

تبيينه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان . قال ابن القيم في كتاب (الروح) : وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بنى آدم . بل هو الروح الذى أخبر الله عنه في كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم . وقد ثبت فى الصحيح^(١) عن عبد الله قال : بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه . وقال بعضهم : نسأله . فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقامت . فلما تجلّى عنه قال : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ...) الآية ، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى . وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس . وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب . وقد تسكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٧ - باب قول الله تعالى : وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . حديث رقم ١٠٦ .

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السديّ عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبي ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبيّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أظلم زمانُ نبيّ يخرج ، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبيّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب . سلوه عن الروح التي تنفخ الله تعالى في آدم . فإن قال لكم : هي من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأ نزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به . فإنه من تفسير السديّ عن أبي مالك . وفيه أشياء منكورة . وسياق هذه القصة في السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها يخالف سياق السديّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبي ﷺ على ملا من اليهود . وأنا أمشي معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه . فنزلت (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) يعني اليهود (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ..) الآية . وكذلك هي في قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نحمد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء . فأ نزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السديّ ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود . ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة ، لم يسكت

النبي ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي ، كقوله تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله ^(٢) (يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال ^(٣) : (أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

الثالث : جبريل كقوله تعالى ^(٤) : (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال تعالى ^(٥) : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ وَهُوَ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو روح القدس ، قال تعالى ^(٦) : (قُلْ نَزَّلَهُ وَرُوحُ الْقُدُسِ) .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى ^(٧) : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ) وإنها الروح المذكورة في قوله ^(٨) : (نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى ^(٩) : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤] .

(٥) [٢ / البقرة / ٩٧] . (٦) [١٦ / النحل / ١٠٢] .

(٧) [٧٨ / النبأ / ٣٨] . (٨) [٩٧ / القدر / ٤] .

(٩) [٤ / النساء / ١٧١] .

رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَأَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) أما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى (يَسَاءُ يَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) وقال (٢) (وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وقال (٣) : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال (٤) : (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ) وقال (٥) : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقال (٦) : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) .

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله في الصحيح المقدمة ، تقتضي فيما يظهر ببادي الرأي ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهي هذه الآية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) انتهى .

وقد روى ابن جرير (٧) عن قتادة : أن الروح في الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذي أراه متعيناً في الآية ، لسابقها وللاحقها ، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن ، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعيينه أن هذه الآية في سياق ذكر القرآن وتنزيله والممة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمي تعالى الوحي بالقرآن روحاً : قال تعالى (٨) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٧] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢] . (٣) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٩٣] . (٥) [٩١ / الشمس / ٧ و ٨] . (٦) [٣ / آل عمران / ١٨٥] .

(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٨) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقال (١) تعالى : (يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَالٍ مِّنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يهتمون في السؤال عنه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى (٢) : (وَيَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَجَى) وقوله تعالى (٣) : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحي وخصائص النبوة ، للآمية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : (وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو في جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكتيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً . وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرى مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعاني ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)

« وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة

للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيماً لشأنه ، ووصفاً له بما هو في حيز الصلة ، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] . (٢) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٣) [٧٨ / النبأ / ١-٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة من ربك تركته غير مُشَاء الذهاب به

بل تولت حفظه .

قال الزمخشريّ : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما . وهما منّة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه في صدره ، ومنّته عليه في بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإيحاء والتعليم الربانيّ ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانيّ ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

« قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معينًا . وفى تقاصر

قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره

عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ

إِلَّا كُفُورًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا » أى رددنا وكررنا وبيّنا « لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ » من كلِّ مَثَلٍ

أى من كل معنى ، هو كالثلث فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفرًا ، كما قال سبحانه « فَأَتَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحودًا .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمهم الحجة وعلبوا ، أخذوا يتعلمون باقتراح الآيات ، فعل المبهوت المحجوج المتعثر فى أذبال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)

[٩١] (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا)

[٩٢] (أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

قَبِيلًا)

[٩٣] (أَوْ يَكُونَ لَكَ يَنْتُ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ

إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى تشقق لنا من

أرض مكة عيونًا « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجَّرَ

الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا » وإنما قدموا فى عنقهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يردون بلاد

الشم والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير^(١) فيما رواه ، إنهم قالوا للنبي ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً . ولا أقل مآلاً . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لناربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا في الاقتراح فقالوا : «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَمًا» أى كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته «أَوْ يَكُونَنَّ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ» أى ذهب : «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» أى وحده «حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه» أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي» أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أى كسائر الرسل . وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يمكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها .

تنبيه :

لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه ، وبحكمته وجلاله . وبيان ذلك - كما في كتاب (لسان الصدق) - أن ما قترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابذة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو وجلت عظمتها . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء . مع أن مثله لا تثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من الفخيل والأعنان ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا) فإن إنزال السماء

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بخذافيه . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ما هو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم : (أَوْ تَأْتِي بِلَالِهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا) فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدوا المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء ، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : (أَوْ يَكُونَنَّ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ) فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم : (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ) فيه - على ما ذكر في الرواية - من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان ، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولاً فآمنوا به . والصعود في السماء لا مزية فيه ، لأنهم قالوا : (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقْيِكَ) فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى يختص بالأنبياء ، والكفار عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزاً . وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلاً . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم : وإيم الله ! لو فعلت ذلك لظننت أني لأصدقك . وقد قال تعالى ^(١) : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه ، هو ما أجاب به ﷺ من قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول . على أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي . وذلك ما تحديتكم بالإتيان

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

بسورة مثله في الهداية والإصلاح . كما أمرني ربى . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، خلوه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ» أى الذين حكى تعنتهم «أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» أى إلا تعجبهم من بعثة إنسان رسولاً . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى (١) : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) والآيات فى ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقراً للملائكة ، لكانت رسلهم منهم ، جريباً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)

«قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ» أى على أقدامهم كما يمشى الإنسان «مُطْمَئِنِّينَ» أى ساكنين فى الأرض قارين «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المارشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

(١) [١٠ / يونس / ٢] .

فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ
ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

في الآية إشارة إلى حاجة من يستقر في الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة الباري
تعالى وعنايته بذلك ، فمن على الخلق بالرسول وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة ،
وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا)

« قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أي على أني بلغت ما أرسلت به إليكم ،
وإنكم كذبتهم وعاندتم . وقرر الرازي أن المعنى بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه
الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أي كفى بما أكرمني به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً
على صدقي . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ،
يجب أن يكون الرسول ملكاً ، تحكم فاسد . اهـ .

وناقشه أبو السعود بأن ما قرره لا يساعده قوله تعالى (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وما بعده من
التعليل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة ، وإبانة للمباينة . وقوله تعالى :
« إِنَّهُ وَكَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي علماً بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسليية
لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

(١) [٢ / البقرة / ١٥١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّاوِيَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلُّ » أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء الماندين « فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ » أى أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة فى (لَهُمْ) حملاً على معنى (مَنْ) وأوثر فى ما قبله الأفراد ، حملاً على اللفظ . وسر الاختلاف فى المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يسحبون عليها كقوله ^(١) (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) .

وقال القاشانى : أى ناكسى الرؤوس لاجتذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التى كانوا عليها فى الدنيا . كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تَبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أى على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أى كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامون عن استماعه - فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ^(٢) (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ) - كذا فى (الكشاف) « مَّاوِيَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ » أى سكن لحيها ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم « زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » أى توقدا . بأن نبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتبهة مستعرة .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٨] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٢] .

قال الزمخشري : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنئها . ثم يعيدها . لازلون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا
أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

« ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أى لَمُحْيُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحنا وبقينا عظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)

« أَوَلَمْ يَرَوْا » أى يعلموا « أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى يوم القيامة . يُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى وَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم . كما قال (١) : (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ) ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هى أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا »

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٧] .

لَا رَبَّ فِيهِ « أَى جَعَلَ لِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مُضْرُوبًا وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بَدَّ مِنْ انْتِقَاضِهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ) ، « فَأَبَى الظَّالِمُونَ » أَى بَعْدَ قِيَامِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِمْ وَوُضُوحِ الدَّلِيلِ : « إِلَّا كُفُورًا » أَى جِحُودًا وَتَعَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .
لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة - جملة وجعل الخ - معطوفة على جملة (أَوَلَمْ يَرَوْا) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهي مؤولة بخبرية - كما في (شرح الكشاف) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة (وَجَعَلَ لَهُمْ) أَى لِعَادَتِهِمْ (أَجَلًا) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلا ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثا . فلا بد أن يجزى بما عمله في هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظاً ومعنى و (لَا رَبَّ فِيهِ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغى إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : (يَخْلُقَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا)

« قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي » أَى رِزْقِهِ وَسَائِرِ نِعَمِهِ عَلَى خَلْقِهِ : « إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » أَى لِبُخْلِهِمْ بِهَا خَافَةَ نَقَادَهَا بِالْإِنْفَاقِ . مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً . لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » أَى بخيلاً .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التي لا يبلغها الوهم ، كما قاله الرخشري .

الثاني : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيقي سبحانه ؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثاني لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل ، إما دنيوى كعوض مالى ، أو معنوى كثناء جميل ، أو خدمة واستمتاع ، كما فى النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالى كان مبادلة لا مبادلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَدْنَا فِي زَمَانِنَا عَنْ حَدِيثِ الْمَكَارِمِ
مَنْ كَفَى النَّاسَ شَرَّهُ فَهُوَ فِي جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلوع صفة له . كما قال تعالى ^(١) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز .
الثالث : ذكر هذه الآية إثر ما قبلها ، لتقرير انفراد تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض ، كي تنجلي لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملائى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقية ما يدعواهم إليه .

وذكر هذ المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان ، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلِّقُ بينه وبين ما تقتضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعيم فضله ، مما يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [٧٠ / المعارج / ١٩ - ٢٢] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنسكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضفتم بها . مما يدل على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُونَ لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا) أى لو أن لهم نصيباً في ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء في الصحيحين^(٢) : (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا تَفَقُّةً ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أَرَأَيْتُمْ مَا أَنتَقُوا مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ مُّبَيَّنَّاتٍ ، فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ مُّبَيَّنَّاتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها في سورة الأعراف في قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ..) الآية ، « فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى عنها : فإنهم يعلمونها ، مما لديهم من التوراة . فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله (مَسْحُورًا) بمعنى سِحَرَتْ فغولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصاة ثعباناً . وعلى الأول هو كقوله^(٣) (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) .

(١) [٤ / النساء / ٥٣] . (٢) أخرجه البخارى في ٩٧ - كتاب التوحيد ،

١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ (طبعتهما) .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ » أى بَدَنَاتٍ مكشوفات لا سحر ولا تحيّل . ولكنك معاند مكابر . ونحوه^(١) (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا) (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بيّنة . أو المراد الحجج ، يجعلها كأنها بصائر المقول . وتسكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)
[١٠٤] (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُلُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى يفرعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الحرب فرقاً منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و (الأرض) أرض مصر . أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكنائها وهى فلسطين ، وقوله تعالى « فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا » أى فحاق به مكره . لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين ، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق « وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد إغراقه « لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُلُوا الْأَرْضَ » وهى أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها .

(١) [٢٧ / النمل / ١٤] .

قال ابن كثير : في هذا بشارة للنبي ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى ^(١) (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم ونمازهم وكنوزهم كما قال ^(٢) (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ) وقوله تعالى (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) «أى قيام الساعة» «جئنا بكم لفيفاً» أى جمعاً مختلطين أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبين أشماله على ما يلائم الفطر وبطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[١٠٦] (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا)

«وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى ^(٣)

(لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُو بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ)

«وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» أى متلبساً بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو

ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى ^(٤)

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا

وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ» أى نزلناه مفروقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٦] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٦] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

بمعنى « لَتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » أى على مهل وتؤدة وثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » أى من لدننا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۰۷] (قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءِ

إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)

[۱۰۸] (وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)

[۱۰۹] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

« قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزخشرى : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكثر بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىء العربى الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ، ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) .

فإن قلت (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلاً لقوله (ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا) ، وأن يكون تعليلاً (قل) على سبيل التسليم لرسول الله ﷺ وتطبيب نفسه . كانه قيل : تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذنن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذنن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه، الذنن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في (خرّ لذقنه ولوجهه) قال : نخر صريعاً لليدين وللغم ؟ قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرور للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخضع . فإن كل ما حمد فيه من النعمت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذمّ منها من مَقْتُهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدّ الإمام الغزالي في (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله ﷺ (١) (اتلوا القرآن وابكوا . فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تمجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجه فيحزن لا محالة ويبكي . فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطي في (الإكليل) أن الشافعي استدل بقوله تعالى (وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا) الآية ، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة . وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة، ١٧٦ - باب في حسن الصوت بالقرآن.

حديث ١٣٣٧ (طبعتنا) عن سعد بن أبي وقاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ،

وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)

[١١١] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا)

«قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» رَدُّ لِمَا أنكره المشركون من تسمية الرحمن ، وإذن

بتسميته بذلك . أى سموه بهذا الاسم أو بهذا . و (أو) للتخيير . «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَىٰ» أى أى هذين الاسمين سميت وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله (فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)

للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه . إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين . فأقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية

كآية^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) « وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ » أى بقراءة

صلاتك . بتقدير مضاف ، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها . كما تسمى

الصلاة ركعة « وَلَا تَخَافُوهَا بِهَا » أى تُسرّ وتُخفى « وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » أى بين

الجهر والخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوسطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمّه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان^(٢) أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ،

١٧ سورة الإسراء ، ١٤ - باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤٥ (طبعنا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط في صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته . ثم بين سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت السكال وصفات الجلال ، بقوله تعالى « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لَمْ يَكُنْ عِلَّةً لموجود من جنسه ، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكننا بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس الموجود حقاً ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَشْرِيكَ فِي الْمُلْكِ » أى من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك . وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة . فلزم تركبهما ، فسكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما إلهاً . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلا معاً . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ، رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشانى .

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ » أى ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعتزازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا » أى عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً .

تمّ ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت في ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ في سدة جامع السفانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

تم الجزء العاشر ، ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيه تفسير :

(١٨ - سورة الكهف ، و ١٩ - سورة مريم ، و ٢٠ - سورة طه ،

و ٢١ - سورة الأنبياء) .

